

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الْفَاتِحِ الْخَاتَمِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ آمَنَ بِهِ

# الجواب المسكت

في الرد على من تكلم  
في هريق الإمام التجاني بلا تشبث

تأليف العلامة المؤرخ الفقيه  
سيدي محمد بن أحمد أكنسوس

أعدده ونشره:

محمد الكبير بن سيدي أحمد بن سيدي محمد الكبير التجاني



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللهم صل على سيدنا محمد  
الفلاتم لما أغلق  
والخاتم لما سبق  
ناصر الحق بالحق  
والهادي إلى صراطك المستقيم  
وعلى آله حق قدره  
ومقداره العظيم



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وحده، نصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، وسبقت كلمته أن جنده هم الغالبون، والصلاة والسلام على شمس العوارف في عروش الحقائق، بابك الأعظم، وصراطك الأقوم، وبرقك اللامع، ونورك الساطع، سيدنا ومولانا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وعلى آله سفينة النجاة وصحابته وسلم تسليمًا، والرضى عن القطب المكتوم، والبرزخ المعلوم، سيدنا ومولانا ووسيلتنا إلى ربنا، الشيخ سيدنا أحمد التجاني الشريف الحسني. وعن خليفته ووارث سره، ومظهر بطونه الإمام التماسيني الذي يردد في صحوه وفنائه: "من كان عارف فليعرف سيدي أحمد، ومن كان محبا فليحب سيدي أحمد، ومن كان متحدثا فليتحدث عن سيدي أحمد، وكل ما تقولون في سيدي أحمد التجاني ففضله أكثر مما تقولون"، أما بعد:

لقد انتشرت الطريقة التجانية عبر المعمورة وفي مدة قصيرة على يد فحولها انتشارا مذهلا حيث وصلت إلى مصر والشرق الأوسط، ثم زحفت إلى غرب إفريقيا ووسطها وهذا مردّه إلى عدة أسباب منها:

1- السند النبوي الصحيح لها، وفي ذلك يقول: العلامة سيدي إبراهيم الرياحي:

وما ظنونك بالورد الذي نظمت يد النبوة هل بينى بلا ساس؟

2- تيسير أورادها في الأداء وفي الزمان والمكان.

3- احترام كل المذاهب الفقهية وكل النظم الاقتصادية والسياسية ما لم تتصادم مع الشريعة الإسلامية.

4- احترامها لسيادة الشعوب والدول وعدم التدخل فيما لا يعينها.

5- الثقة العظمى التي تعطيها لعصاة المسلمين لمن أراد الانخراط فيها إذا قبل شروطها وأبرزها التوبة.

وبفضل الله وهذه المميزات، وتكرسيها لمبادئ المحبة والتسامح، أصبحت الطريقة قبلة لمريدي الطرق الأخرى، فعمّ نورها بذلك لأغلب المناطق وحققت نجاحا باهرا، ومع ذلك فهناك من وجهوا سهامهم لها، ومن هذا القبيل ما قام به أحمد البكاي -سيأتي التعريف به لاحقا- حيث حاول استعطاف بعض رجال الطريقة، وبعث إليهم رسائل يقلل فيها من شأن الطريقة التجانية ويرفع طريقته الكنتية، ومن الذين راسلهم العلامة الفقيه سيدي محمد أكنسوس رضي الله عنه، ومحتوى هذه الرسالة هي دعوة صريحة للفقيه المذكور للتخلي عن طريقته التجانية والانخراط معه، واستمر يجاوره وكأنه يقدم له درسا في الشريعة والتصوف.

ومن هذه الرسالة جاء الرد المفحم للعلامة سيدي محمد أكنسوس المسمى «الجواب المسكت» والذي يعدّ ثاني رد دافع عن الشيخ سيدي أحمد التجاني في ذلك الوقت، بعد رد علامة إفريقيا سيدي إبراهيم الرياحي المسمى: «مبرد الصوارم والأسنت» في الردّ على من أخرج الشيخ التجاني من دائرة أهل السنّة». .

## ترجمة المؤلف

هو المقدم أبو عبد الله سيدي محمد بن أحمد الكنسوسي الهاشمي الجعفري،  
هو وزير ومؤرخ ومحدث وشاعر، ويلقب بلسان الطريقة.

ولد رضي الله عنه بقبيلة تنمرت بسوس (المغرب) عام 1211 هـ الموافق لـ  
1796-1797 تربي في عفاف وديانة، رحل إلى فاس عام 1229 طلبا للعلم،  
فأخذ بالقرويين عن جماعة من أكابر أعلام فقهاء مدينة فاس منهم:

العلامة محمد بن عبد السلام الناصري

العلامة سيدي حمدون الشهير بابن الحاج

العلامة أبو محمد سيدي عبد القادر الكوهن

وكانت للعلامة أكنسوس معرفة تامة بعلم التفسير وبالحديث والفقه  
والتوحيد والأصول والتصوف واللغة وفن الكتابة والهيئة والهندسة وسائر العلوم  
الرياضية.

### مؤلفاته:

لصاحب الترجمة تآليف عديدة ورسائل مفيدة منها:

«الجواب المسكت في الرد على من تكلم في طريق الإمام التجاني بلا تثبت».

«الجيش العرمرم الحماسي في دولة أولاد مولانا علي السلجماني»، في فن  
التاريخ.

«الحلل الزنجفورية في الجواب عن الأسئلة الطيفورية».

«تصحيح الغيث الذي انسجم في شرح لامية العجم».

«الأجوبة التونسية».

«المقامة الكنسوسية».

«خمائل الورد والنسرين في وزارة بني عشرين».

«حسام الانتصار في وزارة بني عشرين الأنصار».

- «البديع في علم التعديل» .  
«تحقيق القاموس الخيط» للفيروز أبادي .  
«تأليف في علم الكيمياء» .  
«ديوان شعر رتبه على حروف المعجم» .

### تلاميذه:

- للعلامة سيدي محمد أكنسوس عدد لا يمكن حصره من الآخذين عنه إنما  
اقتصرنا على ذكر بعضهم:  
نجله العلامة سيدي عبد الله أكنسوس  
العلامة سيدي العربي بن السائح  
العلامة سيدي سعيد الدراركي  
العلامة سيدي محمد أمغار  
السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان  
العلامة سيدي الحاج الحسين الافرائي  
العلامة سيدي الحسن بن طيفور  
العلامة سيدي أحمد محمود

### أخذه للطريقة:

أدرك المترجم له الشيخ سيدي أحمد التجاني، لكنه لم يأخذ عنه الطريقة بل  
أخذها عن العارف بالله سيدي محمد الغالي أبي طالب سنة 1238هـ .  
ثم أجازها جماعة من فطاحلة الطريقة منهم: الخليفة الأعظم سيدي الحاج  
علي التماسيني، سيدي محمد الغالي، سيدي أبي النصر العلوي وغيرهم .  
ومما سمعه المترجم له من الشيخ سيدي أحمد التجاني رحمته الله حسب ما ثبت  
عن العارف بالله سيدي العربي بن سائح "أول ما تلاقيت مع الشيخ رحمته الله  
بالزاوية، فرحب بي وأجلسني بجانبه، ووجدت أمامه رجلا، ودخل عليه رجل،



فقال للشيخ رحمته الله: "يا سيدي هل قلت فقراؤك وأصحابك أصحاب النبي رحمته الله؟"  
فقال سيدنا رحمته الله: "هو رحمته الله قال لي: فقراؤك فقرائي وتلاميذك تلاميذي، هكذا  
رويت عن هذا السيد عن الشيخ عن النبي رحمته الله".

### وفاته:

لبي نداء ربه ليلة الثلاثاء 28 محرم عام 1294هـ الموافق لـ 11 فبراير  
1877م، ودفن بمراكش.

ترك الفقيه أكنسوس رحمته الله نسلا خدّم الإسلام والطريقة بإخلاص، وما زال  
لحد هذه الساعة رافعا لواء الطريقة عاليا منهم: العلامة سيدي يوسف مقدم  
الزاوية الكنسوسية بمراكش، وسيدي محمد المهدي وسيدي جعفر.

وعرفانا بما قدّمه المقدم والعلامة الجليل سيدي محمد أكنسوس من عمل  
جبار خدمة للإسلام والطريقة الغراء، تتقدم الزاوية التجانية التماسينية بإعادة  
طبع رسالته المسماة «الجواب المسكت» إثناء للرصيد الثقافي الصوفي  
الإسلامي، هذه النسخة مصححة على النسخة التي طبعت بالمطبعة الشعالبيّة  
الجزائر عام 1331هـ الموافق لـ 1913م.



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتم لما أغلق والذاتم لما سبق

ناصر الحق بالحق والماضي إلى صراطك المستقيم

وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم

دعت بعدما أبدى مباسمه الفجرُ  
مُفهِفَةً يَسِي العُقُولِ جِمالِها  
تَقُولُ اسْتَفِقْ إِنْ الرِّكَّابُ ساقِها  
فَقُلْتُ لَصِحِّي والأَباعُ تُشْتَكِي  
أَتأملُ ذاتُ الخالِ أُنِّي ظاعنِ  
وأُنِّي للوادي المقدسِ تاركُ  
وهل تترك العيسُ الهوامي مسارحاً  
وإن هاج من حر الهواجر فيحها  
فلا والذي خصَّ المُجابَ وقومَه  
بني عَقَبَةَ الشيخِ الهِجانِ ابنِ نافعِ  
ولا خَيْرَ إلا في نزارِ وخيرُهم  
بأسيافهم فَتَحَ المِغارِبِ كلِّها  
ومن نورهم فَتَحَ القُلُوبِ التي دَجَتْ  
بسيدينا المختارِ لا زال ذكره  
وبالشيخِ مولانا الإمامِ محمدِ  
ونجلِهما المختارِ خيرِ خليفَةِ  
ورابعِ أركانِ الجلالَةِ أحمَدِ  
بهم نُصِرَ الإسلامُ وازدانِ وازدهى  
بهم نَشَرَ اللهُ العِلْمَ فأصبحتِ  
بهم فاضتِ الأسرارُ والنورُ والتقى

وزال عن الإشراق من ليله الحجرُ  
أفي لحظها سحرٌ بلى إنه السحرُ  
وأحدجها من قبل إسفاره السفرُ  
بهدرٍ وما تغني الشكايةُ والهدرُ  
عن الحي لا يقضي بما تأملُ الدهرُ  
وتلك التي لا يستقلُّ بها العذرُ  
مباركُها أَمِنَ ومنهلها غمرُ  
أفادت عليها الظلُّ ادواحه الحُضْرُ  
بما لم ينل زيد سواهم ولا عمرُ  
مناسبُ تَأبَى أن يفوقهم فخرُ  
على كل حال ما توارثه فهِرُ  
على حين عَمَّتْها الضلالةُ والكُفْرُ  
بما ظلمَ الأهواءِ واجتاحها الوِزْرُ  
يحفُّ به الرضوان إن جُلي الذكرِ  
فذانِ هما الشمسِ المنيرةُ والبدرِ  
كما تخلف الآسادُ أشبالها الحُزْرُ  
أولئك في أوجِ المعالي هُمُ الزُهرُ  
ولازمَه في ظلِّهم ذلك النصرُ  
وقد طاب منها بعد طيِّبها النِشْرُ  
فأضحى لديهم كالعلانية السِّرُ

أسيدنا البكائي يا من إذا بدا  
 خلقتهم في المكرومات وفي العلا  
 وأبديت سرّاً لم يكن قبلُ باديّاً  
 وبأبك بابُ الله فاض به النداء  
 وعليناك لا يستوعب القول وصفها  
 فلا زال كلُّ الكون يثني وأهله  
 محياه حيثنا البشاشة والبشر  
 وشيدت ما شادوا وشدّ بك الأزر  
 كذلك فضلُ الله ليس له حصر  
 لمستمطريه لا بكّي ولا نزر  
 وفضلك يكبو دون غايته الفكر  
 عليك كما يثني على الواهب الزهر

اللهم إنا نبرأ إليك من الحول والقوة. اللهم إنا نعوذ بك وبآياتك المتلوة  
 والجلوة، من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، وإتباع أهوائنا. اللهم إنك  
 تعلم عجزنا وفقرنا وذلتنا وضعفنا. اللهم إنا لا ندعي أن يكون شيء من العزة  
 أو القوة أو الكمال وصفنا، إلا أن يشاء الله ربنا، وسع ربنا كل شيء علماً،  
 على الله توكلنا، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين. اللهم إنا  
 نستوهبك سكينه تنعش القلوب والأرواح وطمأنينة يتجلى بها علينا في ظلمات  
 هذا الزمان ضوء الصباح. وإنا نحمدك اللهم حمداً كثيراً كما أنت أهله، ونصلي  
 ونسلم على بذرة الوجود، وقبلة السجود، سيدنا ومولانا محمد الذي عمّ جميع  
 المكوّنات نواله وفضله، وعلى آله وأصحابه الهداة المهتدين، ومن تبعهم بإحسان  
 إلى يوم الدين.

ثم نخص بأزكى التحايا وأمماها، من خصه الله بأسمى المواهب والعطايا  
 وأسمائها، ومن هو مثابة الجلالة التي تفت المطامع، ومن هو مركز الأصالة التي  
 تزهو بها الجوامع والجماع، ومن هو مطلع الأسرار الخافقة الألوية، والسادة  
 المشرقة أفلاكها العلوية، ومن هو مظهر المعارف التي زانها الجمع بعد الفرق،  
 ومن هو بحر الحقائق التي تموج ما بين الغرب و الشرق، إمام الطريقة، وشيخ  
 السنة والحقيقة، ومنبع الفيوض اللدنية على الإطلاق، والمتحلّي بمكارم الشيم  
 وأحسن الأخلاق:

بهم أغرّ ميمون وجهٍ يستضاء به  
 يتلو الأئمة من آبائه وبهم  
 تبلج السعد عنه وهو مقتل  
 في كل ما أتلهه يضرب المثل

أبو العباس سيدي أحمد البكاي<sup>(1)</sup> بن الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار، أعز الله أولئك الأئمة العالية الأقدار التي عليها المدار.

وبعد: فإننا نحمد إليكم الله الذي تعالى جدّه، وهو الذي ليس لأحد سلطان على من هو عبده، ونسأله لنا ولكم العفو والعافية ودوامها، وإخصاب الآمال بحيث لا ينال الخُلُ سوامها، وقد بلغنا كتابكم الكريم، وخطابكم الواجب التهويل والتعظيم، وكان مورده لدينا عيداً حسيماً، وموسماً وسيماً:

سقاني فأهلاً بالسقاية والساقي سلافاً بما قام السرور على ساق  
وقد نشأت لي نشوة بعد نشوة تمد بروحانية ذات أذواق

إذ أهّلنا الله سبحانه للحضور في بالكم، وشرفنا بمواجهة إقبالكم، إلا أنه مع ذلك الفرح الزائد، الخارق للعوائد، أوقعنا في حيرة آية حيرة، كادت أن تنسينا خيره، وذلك أننا لا ندري ما هو الصواب، هل الجواب أم ترك الجواب؟ لأن الجواب يقتضي كلاماً، ومقامكم العالي لا يقتضي إلا انقياداً واستسلاماً.

ولكن نحمد الله تعالى الذي شرح بعد تلك الحيرة صدورنا، وأثار بتوفيقه أمورنا، فنظرنا فإذا نفوسكم النورانية المطمئنة، مترهة عن كل ومظنة، وعلمنا حقاً أن مراد هممكم إنما هو الوقوف على محض الحق، وإعطاء كل مستحق ما استحق، وأن الأمر كما قال الشيخ أبو القاسم السُّهيلي رحمه الله تعالى: "إذا نُظِرَت الأمور بعين الإنصاف لا بعين الشهوة والتعصب للمذاهب، ظهرت الحقائق، واتضح الطرائق". ومن أكد الدواعي إلى الجواب، أن جنابكم الأظهر لا يجوز بحال أن يُعرض عنه ويُستظهر.

ومما جرّأنا على الجواب أيضاً - مع حقارة أنفسنا عندنا، وإن كنا قد تعدينا في ذلك طورنا وحدنا - ما قاله الشيخ زروق رحمته الله، ونصّه: "تحقق العلم بالزنية لا يبيح السكوت بعد تعيّن الحق إلا بعد العلم بحقيقة ما عليه الفاعل من

(1) أحمد البكاي: فقيه أديب صوفي، ينحدر من أسرة المختار الكنتي، التي تتخذ من مدينة تمبكتو (مالي) مقراً لإقامتها، حاول استمالة علماء الطريقة التجانية برسائله، لكن جهوده لم تنصر، فبالإضافة إلى الرسالة المذكورة سلفاً إلى الفقيه أكنسوس، بعث قصيدة يمدح بها المجاهد سيدي الحاج عمر الفوتي، خاصة بعد انتصاراته العسكرية الكبيرة بإفريقيا الغربية، توفي أحمد البكاي عام 1281هـ الموافق لـ 1865م.

غير شك، ثم إن وقع إنكار فليس بقادح في واحد منهما، كما قال الخضر لموسى عليهما السلام في أول أمرهما، الخ كلامه.

ومع هذا العذر الواضح في إتيان الجواب، فإن الحق الذي لا مِرية فيه أننا في غنى عن ذلك، وفي شغل شاغل. أما الغنى عنه فإن الله عز وجل متكفل بالدفاع عن حوزة أوليائه، وهم أيضا ليس شيء يُنقص من عليّ أقدارهم، وربما حاول المنقص تنقيصهم، فيزيدهم بذلك كمالا وشرفا.

قال الشيخ ابن عبّاد رحمته الله في بعض رسائله: "ثم لنا في الانتظام في سلك من اعترض عليه من أهل الحق، ونُسب إلى الضلال والزندقة، وهم خاصة الأولياء، نعمة جزيلة لا يُقدَّر قدرُها، ولا يوفَّى شكرُها، بيد أنهم ينقصهم ذلك ذرة واحدة من أحوالهم المكيّنة، ولم ينقلب متنقّصهم إلا بالعين السخينة". اهـ.

وأما الشغل الشاغل، فإننا والعياذ بالله تعالى وإليه المشتكي غرقى في غمار عيوب أنفسنا، وحصائد جوارحنا. قال الشيخ الشعراي رحمته الله: "قال أخي أفضل الذين لو كشف للإنسان لرأى ذاته كلها عيوباً اجتمعت، وضُم بعضها إلى بعض فصارت صورة إنسان"، وفي التمهيد لأبي عمر بن البر رحمه الله بسنده: "أن بعض الأمراء سأل محمد بن واسع عن القضاء والقدر، فقال له: أيها الأمير، إن الله تعالى لا يسأل يوم القيامة عبده عن القضاء والقدر، وإنما يسأله عن عمله". انتهى.

لنفسى أبكى لست أبكى لغيرها      لنفسى في نفسي عن الناس شاغلُ

فمن كان مثلنا لا تسعه مقابلة أمثالكم الذين فرغوا من تمهيد أنفسهم، وأقامهم الله تعالى مقام الإرشاد لخلقهم من أبناء جنسهم، وكان - والله - عدم التصدي للجواب أهم لنا، وأليق بنا، لولا عارض عرض، وحق مفترض، وهو ما رواه ابن المبارك من رواية أنس بن مالك رحمته الله، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الساكت عن الحق كالتكلم بالباطل، وكاتم الشهادة كالشاهد بالزور، ومحرم الحلال كمحلل الحرام". اهـ.

ولسنا نقول أنكم تقولون الباطل، حاشا لله لكن المبطلون هم الداغلة الذين بلّغوكم غير الحق. فإنما أنتم بشر تقضون بما تسمعون، وأما جانبكم الطاهر المحفوظ، فقد برّاه الله تعالى بقولكم فيما بلغنا، كما أن الفكر ليس بكافر.

## فصل

فإذا تمهد هذا، فنقول بحول الله وقوته، معترفين بالقصور والتقصير، ولا نزيد على ما يفيد مطلق التبصير، اعلم أيها الشيخ الهمام، الذي هو مظهر رحمة الله تعالى المفاضة على الأنام، أننا قد تيقنا أنك بالغت في إرادة الخير لنا بمقتضى اجتهادك وجميل اعتقادك.

ودعوتني وزعمت أنك ناصحي      ولقد صدقتَ وكنت ثم أمينا  
وعرضت دينا لا محالة أنه      من خير أديان البرية دينا

وذلك شأن أمثالكم الهادين المهتدين، الأمناء الناصحين، لا يزالون يدعون إلى الفلاح، ويتمنون لجميع المسلمين عموم الخير والصلاح، ولا شك أن كل مؤمن يرجو لأخيه المؤمن ما يرجو لنفسه لقوله ﷺ: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه".

ومقتضى هذه الشفقة التي تثيرها الحبة والأخوة في الله تعالى، أن كل من دخل في طريق من طرق المشائخ عليهم السلام ينبغي له أن يدعو من أحبه وأشفق عليه وآخاه، إلى الدخول في مثل ما دخل هو فيه، وربما دعا كل واحد منهما صاحبه إلى ما عنده، لأن كلا منهما مُحَبٌّ للآخر ومُشفق عليه، وكل منهما يرى أن طريقه أحسن الطرق، وأن شيخه أكمل المشائخ، وذلك هو الواجب عليه. كما في «الذهب الإبريز في مناقب سيدي عبد العزيز»، ونصه: "وإنما وجب عليه ذلك لأن الشيخ الذي يرى من مريده الالتفات إلى غيره يقطع عنه المادة، والمريد الذي يدخل في صحبة شيخ من المشائخ وهو يرى أن في الوجود مثل شيخه أو أكمل، يبقى متشوقا إلى ذلك الأكمل في اعتقاده، فيراه شيخه متشوقا إليه، فيقطع عنه المادة، فلا يكون بالأول ولا بالثاني." قال الشيخ، يعني سيدي

عبد العزيز رضي الله عنه: "وقد رأينا مثل هذا في زماننا كثيرا، والله يكون لنا وليا ونصيرا". انتهى كلام «الإبريز».

وقال أبو العباس الشريشي في قصيدته الرائية المسماة بـ: «سراثر الأنوار وأنوار السراثر»:

ولا تعدُّ عن حال اعتقادك مُربِّ ولا أولى بها منه في العصر

ولعل أصل هذه النصيحة ما في «الموطأ» و«البخاري» وغيرهما، من أن أبا الدرداء رضي الله عنه كتب إلى أخيه سلمان الفارسي رضي الله عنه، وأبو الدرداء بالشام وسلمان بالمدينة الشريفة: "هلم إلى الأرض المقدسة"، فكتب إليه سلمان: "إن الأرض لا تقدس أحدا وإنما يقدسه عمله، وقد يلغني أنك صرت طبيبا داوي الخ".

وأما أنا يا سيدي، فإنَّ شرح قصيتي هذه في قضية سيدنا حذيفة بن اليمان وسيدنا عمّار بن ياسر رضي الله عنهما، حيث قال لهما نفر من اليهود بعد وقعة أُحُد: "لو كنتم على الحق ما هُزمتم فارجعا إلى ديننا فنحن أهدي سبيلا منكم"، فقال لهم عمار: "كيف نقضُ العهد فيكم؟"، قالوا: "شديد"، قال: "فإني عاهدت الله تعالى أن لا أكفر بمحمد ما عشت"، فقالت اليهود: "أما هذا فقد صبا"، وقال حذيفة: وأما أنا فإنني رضيت بالله رباً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن إماماً، وبالكعبة قبلة، وبالمؤمنين إخواناً"، ثم أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبراه بذلك، فقال لهما: أصبتما الخير وأفلحتما". اهـ.

وإنني لو كنت مستفتيا فيما دعوت إليه غير قلبي، لكان مقامك العزيز أولى من يُستفتى في ذلك، فتكون صورة الاستفتاء هكذا: "ما يقول أهل الله تعالى العلماء العاملون، في رجل مؤمن بايع ولياً من أولياء الله تعالى، وألقى إليه قيادة، وعاهد الله تعالى على متابعته في السر والجهر على قدر الطاقة. والحالة أنه ما دخل في عهد ذلك الولي حتى استقرأ جميع الطرق الموجودة بعقله، وتوسّم جميع المشايخ الموجودين، وظهر له بالبرهان الذي اعتمده، والمعيار الذي اتخذ لارتياحه واختياره لنفسه، أنه ليس فوق الأرض، ولا تحت السماء، من هو أقرب إلى حضرة الله تعالى المقدسة، وحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي يريد السلوك إليها،



والاتصال بها، من ذلك الشيخ الذي أجره رَسَنَه، وفوَّض إليه إرادته، ونفرض ذلك الرجل المؤمن أحد أتباعكم ومريدكم، هل يجوز له أن ينقض ذلك العهد، ويتركه ويذهب إلى غير شيخه، ويدخل في عهده تاركاً لقدوته الأول؟ وهل له عذر عند الله تعالى؟ وهل لفعله وجه عند أهل الطريق؟".

ولا يستدل بمثل قضية الشيخ زروق مع شيخه الزيتوني والحضرمي رحمهما الله، فإن الناس قد نصوا على أنها من باب غرّ وسلم. والذي تقرر عندنا هو قول إمام هذه الطريقة، الشيخ الأكبر سلطان العارفين، محي الدين بن عربي الحاتمي رحمته الله، ونص ما ذكره في كتاب «التجليات» له: "المبايعون ثلاثة: الرسل والأشياخ، والسلاطين، والمبايع في الحقيقة في هؤلاء الثلاثة واحد وهو الله تعالى، وهؤلاء شهداء الله تعالى على بيعة هؤلاء الأتباع" إلى أن قال، بعد ذكر شروط المبايعة فتحا وكسرا: "والبيعة لازمة لهم حتى يلقوا الله تعالى، ومن نكث من هؤلاء الأتباع فحسبه جهنم خالدٍ فيها، ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزيكهم، وهم عذاب أليم، هذا حظه في الآخرة، وأما في الدنيا فقد قال أبو يزيد في حق تلميذه لما خالفه: دعوا من سقط من عين الله تعالى، فرئي بعد ذلك من المخنثين، هذا لما نكث، أين هذا ممن وقى بعهد الله تعالى مثل تلميذه أبي سليمان الداراني رحمته الله الذي قال له: ألق نفسك في هذا التنور، فألقى نفسه فيه بلا توقف، فعاد عليه بردا وسلاما؟ هذه نفحة الوفاء". اهـ من الكتاب المذكور.

## فصل

ومما يجب ذكره هنا، لا لكونه مجهولا فيعرف، أو خفيا فيظهر، فإنه أجلي من شمس الظهيرة وأشهر.

كأنه الشمس في البرج المنيف على كل البرية لا نار على علم

ولكن ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حيى عن بينة. وللرد على من بلغكم، أيدكم الله، أن شيخنا أبا العباس التجاني رحمته الله لا طريق له، حتى قلتم فيما كتبتم إلينا إنه الشيخ معدوم، وطريق غير معلوم، فيقال سبحان الله سبحانه

سبحانه، كيف يسلبُ العارف معرفته إذا أراد امتحانه، لو غيرك قالها يا أبا عبيدة.

وأما شيخنا رحمته، فقد لقي في طريق لإرادته الجماء الغفير من رجال الطريق بالمغرب والمشرق، في فاس وجبال الزبيب والواسطة وزواوة وتوات وإفريقية ومصر والحرمين الشريفين، وتلقى منهم الأسرار والأنوار، وورث جلهم في مقاماتهم، وبشروه بما يؤول إليه أمره، وما أراد به ربه من عظم الشأن، والتوحد في القبطانية العظمى التي لم تكن لغيره. وأخذه رحمته للطريقة الخلوتية متصل السند، مرفوع العمد من شيخه الكامل المكمل سيدي محمود الكردي المصري رحمته عن الشيخ الحفني إلى السيد الوجود رحمته، كما هو مذكور في «جواهر المعاني» وغيره. ولما سرد في «الجواهر» هذا السند الشريف، أنشد:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعنا يا جريير الجامع

ولقد لقي رحمته قطبين جليلي القدر والشأن، وأخذ عنهما أسرارهما، وبشراه بنيل المكانة العليا من العرفان، أحدهما بالمغرب، وهو القطب الأشهر مولانا الطيب بن محمد بن عبد الله الشريف اليملحي الوزاني رحمته، والثاني بالمشرق، وهو القطب الجامع أبو عبد الله سيدي محمد بن عبد الكريم السمان ساكن المدينة الشريفة رحمته. هذا كله في حال سلوكه رحمته وإرادته، و أما الإذن له في هداية الخلق إلى حضرة الحق فمن سيد الوجود رحمته كفاحا، يقظة لا مناما، وقال له رحمته: "أنه لا مئة لأحد من المشايخ عليك". فلا واسطة بينه وبين رسول الله رحمته، فطريقته محمدية مصطفوية، كما هو شأن من تفضل الله عليه بالوصول إلى هذا المقام المسمى عند أهل الله تعالى بالختم<sup>(1)</sup> والله واسع عليهم.

فإذا ثبت اتصال شيخنا رحمته في إرادته وسلوكه من كل جهة بالأولياء الأكابر، والمشايخ العظام، والأقطاب المشاهير الكرام، فكيف يقال إنه لا طريق له، أو طريقه غير معلوم؟ هذا والله العظيم غاية العجب.

(1) انظر رسالة مولانا العربي بن السائح المسماة: «الجواب الكافي» أجاب به العلامة سيدي صالح بن أحمد النيفر مفتي المالكية بالديار التونسية. وكذلك مخطوط المقدم سيدي محمد كون المسمى: «الدار المنظوم في نصرة القطب المكتوم»، وتذييله: «النطق المفهوم في حل مشكلات الدر المنظوم».

فإن قيل هذا أي كونه لا واسطة بينه وبين سيد الوجود ﷺ ينافي ما قررتم آنفاً من كونه أخذ عن المشائخ المذكورين، وأنه يعتمد سند الطريقة الخلوتية كما تقدم، فالجواب إنه لا منافاة، فقد سئل أستاذ الأساتيد أبو الحسن الشاذلي رحمته الله، وقيل له: من هو شيخك؟ فقال: كنت أنتسب إلى الشيخ مولانا عبد السلام بن مشيش، وأنا الآن لا أنتسب إلى أحد، بل أعوم في عشرة أبحر، من خمسة الآدميين النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان و علي، وخمسة من الروحانيين جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل والروح.

## فصل

وأعجب من ذلك أن من الناس من يظن أنه لا يصل إلى حضرة الله تعالى أحد إلا على يد شيخ، ويستدل بمثل ما نقله الشيخ سيدي عبد الوهاب الشعراني رحمته الله في ترجمة الشيخ شمس الدين الحنفي رحمته الله من أنه يقول: "والله ما عرف الكيلاني وابن الرفاعي وغيرهما الطريق إلى الله تعالى إلا بالتربية على يد شيخ". اهـ.

هذا ويأتي قريباً - إن شاء الله - عن الشعراني نفسه وغيره: أن التربية قد انقطعت منذ أزمان. فمقتضى كون التربية اليوم معدومة مع كون الوصول لا يمكن بدونها أن لا يوجد وصول لأحد في هذا الزمان، وذلك تهافت باطل.

والحق أن الفتح والوصول قد كانا بالتربية لما كان الزمان صالحاً لها كزمان الكيلاني والريفاعي ومن قاربهما، وبعد ذلك صار لا يكون إلا بالصلاة على رسول الله ﷺ وهم المشائخ في كل زمان، لقول الشيخ زروق رحمته الله عن شيخه كما يأتي قريباً إن شاء الله: "رأيت أبواب الله قد استدارت للغلق، ولم يبق مفتوحاً إلا باب الصلاة على رسول الله ﷺ".

وإلى هذا أشار البوصيري في الدالية بقوله:

وتزود التقوى فإن لم تستطع فمن الصلاة على النبي تزود

قال ﷺ للذي قال له أجعل لك صلاتي كلها: "إذا تكفى همك ويغفر

ذنبك". اهـ.

فمن فهمَ عن الله تعالى ورسوله ﷺ ما أشار إليه الحديث، علِمَ يقيناً أن الصلاة على رسول الله ﷺ هي الطريق الواضح لحضرة الله تعالى قطعاً، بلا خوف ولا مشقة ولا حرج.

قال الشيخ الشعرائي رحمه الله في ترجمة أبي المواهب التونسي رحمه الله أنه قال: "ومن المرئيين من يتولى الله تعالى تربيته من غير واسطة لأحد من الأئمة حتى لا يكون لواسطة عليه منة، ومنهم من يتولاه بواسطة بعض الأولياء ولو ميتاً في قبره، فيربي مریده وهو في قبره، ويسمع مریده كلامه في القبر، والله عباد يتولّى تربيتهم رسول الله ﷺ بنفسه من غير واسطة بكثرة صلاتهم وتسليمهم عليه". اهـ.

قال الشيخ زروق رحمه الله في أواخر شرح «حزب البحر»: "ومما كتب لنا به شيخنا أبو العباس الحضرمي في وصيته الأولى: وعليك بدوام الذكر والصلاة على رسول الله ﷺ، فهي سلّم ومعراج إلى الله تعالى، وسلوك إلى حضرته إذا لم يلق الطالب شيخاً مرشداً". اهـ.

ومعلوم ما وقع آخر المائة الثامنة بين فقراء الأندلس من الاختلاف حتى تضاربوا بالنعال، فقال بعضهم: "يمكن الاستغناء بالكتب عن الشيخ، ومنع البعض الآخر وكتبوا إلى الآفاق"، ومعلوم جواب الإمام ابن عباد رحمه الله في ذلك فلا نطيل به.

وقال حجة الإسلام الغزالي رحمه الله في «المنهاج»: "قد يكون ذلك بلا شيخ، ولكن الشيخ فاتح". اهـ.

وقال الشيخ أبو العباس سيدي أحمد بن موسى اليماني رحمه الله: "من لم يكن له شيخ يُربيّه فليلزم الصلاة على رسول الله ﷺ فهي تربيّه بأحسن الآداب النبوية، وتهديه بإشراق أنوار الأخلاق الحمّدية، وترقيه إلى أعلى درجات الكمال، وتوصله إلى المحل الأسنى من حضرة الكبير المتعال، وتنعمه برؤية الله تعالى، مع النبي ﷺ"، وقال رحمه الله: "بكثرة الصلاة على رسول الله ﷺ صحبت رسول الله ﷺ، وبِقُلِّ هُوَ اللهُ أَحَدُ عرفت الواحد الأحد". اهـ.

فأين قول من بلغكم - رضي الله عنكم - : أن شيخنا عليه السلام ليس له شيخ ولا طريق؟ فهل ذلك إلا جهل بما تقدّم، أعناد أو غفلة؟ وهل ترك الإنسان في الدين غاية إذا قال قلّدت النبي محمدا فعلى كل حال فهو قول بلا دليل، ودعوى بلا حجة. والدعاوي ما لم يقيموا عليها بينات أبناؤها أدياء وكان من حق ذلك المبلّغ أن يُنهي ويُزجر إن كان معاندا، ويُعلّم إن كان جاهلا، ولكن الأمر لله سبحانه، وعفوه سبحانه واسع. فهذه الطريقة الحمديّة - والحمد لله - واضحة موصولة الأسباب، مفتّحة الأبواب لمن أراد الله سعادته من أولي الألباب، إلا أنّها عزيزة الوجود، وأهلها أعزّ من كل عزيز.

## فصل

قال الشيخ الشعراي عليه السلام لما تكلم على هذا المقام الحمدي ما نصه: "وهذا مقام شريف لا يصل إليه السالك إلا بعد مجاوزة مائتي ألف حجاب وسبع وأربعين ألف حجاب وتسعمائة وتسعين حجابا، فليس هذا لكل ولي". اهـ. وهذه الحجب هي المنازل التي ورثها الأنبياء من المرسلين، قاله الشيخ الأكبر في الباب 73 من: «الفتوحات» وقال: "كلما نزل ولي مقاما منها يُخلع عليه من العلوم ما لا يحصى، ولكن منزل ذوق خاص لا لغيره". اهـ.

إلا أن شيخنا عليه السلام، وإن شاركه بعض من قبله من الأولياء في الوصول إلى هذا المقام، فإنه لا يشاركه فيه من بعده لأنه الخاتم الأكبر الذي ختم الله به المقام الحمدي، أخبره بذلك من لا يتطرف الرّيب إلى أخباره عليه السلام، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

## فصل

فإن قيل فما حقيقة هذا الختم المذكور وما هذا المقام المتنافس فيه عند الأولياء فإن كلامهم فيه كثير ومع كثرته لا تكاد حقيقته تتميز، فالجواب هو ما أشار إليه شيخنا أبو العباس التجاني رحمته الله كلامه على تأويل الصفات العالية المقدسة، فإنه قال ما نصه: "ولهذا قال الشيخ الكامل مولانا عبد القادر الجيلاني رحمته الله: من أَلَفَ الْبَهَاءَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَلَمْ يَطَالِعْ إِلَّا صِفَاتِ الْجَمَالِ مِنَ الْحَقِّ لَا يَثْبِتُ لِبُدْوِ الْعِظْمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ. اهـ.

قال شيخنا رحمته الله: قوله "لا يثبت لبُدْوِ الْعِظْمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ"، معناه أنه لا يثبت لها إلا الأَكْبَرُ مِنَ الرِّجَالِ لَا الْعَارِفُونَ، فَإِنَّ أَكْمَلَهُمْ وَهُوَ الْقُطْبُ الْكَامِلُ، لَا تَتَجَلَّى لَهُ حَقِيقَةُ الْكِبْرِيَاءِ إِلَّا بَعْدَ بُلُوغِهِ لِلرَّتْبَةِ الْعُلْيَا مِنَ الْقُطْبَانِيَّةِ وَذَلِكَ الْمَقَامُ يَسْمُونَهُ خَتَمَ الْمَقَامَاتِ، وَلَمْ يَرْتَقِهِ مِنَ الْأَقْطَابِ إِلَّا الْقَلِيلُ لِبَعْدِ مَرَامِهِ، فَإِذَا ارْتَقَاهُ الْقُطْبُ وَوَصَلَهُ فَهَنَالِكَ يَتَجَلَّى لَهُ الْحَقُّ بِالْكِبْرِيَاءِ الذَّاتِيِّ، وَلَا يَزَالُ مَرْتَقِيًا فِيهَا إِلَى الْأَبَدِ، وَلَوْ تَجَلَّى مِنْ ذَلِكَ الْكِبْرِيَاءِ بِمَقْدَارِ ذَرَّةٍ مِنْهُ لَجَمِيعُ الْعَارِفِينَ وَالصَّادِقِينَ لَصَارُوا هَبَاءً مَنثورًا فِي أَسْرَعِ مِنْ طَرْفَةِ عَيْنٍ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا الْقُطْبُ الْجَامِعُ لَكِنْ بَعْدَ بُلُوغِهِ لِمَقَامِ الْخَتْمِ، وَقَبْلَ بُلُوغِهِ لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَيْهِ.

قال مولانا علي كرم الله وجهه: المعرفة كشف سُبُحات الجلال، وغايتها الدَّهْشُ فِي كِبْرِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى. اهـ. أراد بغايتها مقام الختم في القطبانية، فهو غاية الغايات. اهـ. المراد من كلام شيخنا رحمته الله.

وفي كلام محي الدين الحاتمي رحمته الله ما يدل على أن الختم المذكور مراتب، أعلاها لا يكون إلا لشخص واحد وهو الذي لا تُكُونُ بَعْدَهُ لغيره، وهذا هو المتنافس فيه.

وفي كلام شيخنا رحمته الله ما هو صريح فيه هو أن سيد الوجود رحمته الله أخبره أنه هو صاحب المقام، وأكد له رحمته الله ذلك تأكيداً بليغاً لا يقبل التأويل.

## فصل

وإلى شيخنا رحمته الله وكونه آخر الختم للمقام الحمدي أشار الأكبر رحمته الله في «الفتوحات» بقوله: "وقد اجتمعتُ به سنة 595، ورأيت العلامة التي أخفاها

الله تعالى فيه عن عيون عباده، وكشفها لي بمدينة فاس حتى رأيت خاتم الولاية  
الحمدية منه، ورأيته مُبتلىً بالإنكار عليه فيما يتحقق به في سره من العلوم  
الربانية"<sup>(1)</sup>. انتهى المراد منه.

ونقل ذلك عنه الشيخ سيدي عبد الوهاب الشعرائي في «البيواقيت  
والجواهر» ولا محالة أن الاجتماع الذي ذكره برزخي والله تعالى أعلم.

## فصل

وهذا الإنكار الذي ذكره الشيخ محي الدين من علامات صاحب هذا  
المقام دليل واضح على علوه على من دونه، وأنه حجاب على من أنكر عليه،  
كما يأتي إن شاء الله في كلام محي الدين في كتاب «الحجب» له لأن الأولياء  
وإن كانوا أهل الرسوخ في المقام، يجهلون مراتب بعضهم ووساطة من هو أرفع  
رتبة منهم، كما وقع للشيخ سيدي عبد الرحمن الطفسونجي مع الشيخ مولانا  
عبد القادر الجيلاني رضي الله عنهما، وحكايتهما مشهورة.

قال الشيخ الشعرائي رحمته الله في كتابه «الجواهر والدرر» الذي وضعه في  
مناقب شيخه الخواص رحمته الله، ما نصه: "وسمعت رحمته الله يقول: الخلق على طبقات  
عامة، فقهاء، متصوفة، صوفية، عارفون، كاملون، أقطاب. فكل من كان في  
مرتبة من هذه المراتب ينكر ما وراءها ضرورة لعدم ذوقه له، فالفقيه ينكر على  
المتصوف، والمتصوف ينكر على الصوفي، والصوفية تنكر على العارف، وهذا لا  
ينكر على أحد لمروره على المراتب كلها. قال: ومرادنا بالإنكار من حيث الفهم  
لا الإنكار من حيث الأحكام الشرعية". اهـ.

قال الشيخ الكامل المكمل سيدي مصطفى البكري رحمته الله بعد نقله لهذا  
الكلام: فكان صاحب المقام الأعلى حجابا على الأدنى. اهـ. فإن قيل هل هذا  
الجهل عذر لمن اتصف به إذا أنكر على من فوقه، فالجواب هو ما تقدم من قول  
الإمام زروق رحمته الله وهو قوله: ثم إن وقع إنكار فليس بقادح في واحد منهما،

(1) انظر كتاب العلامة حسين حسن الطماني التجاني المسمى: «أقوى الأدلة والبراهين على أن سيدي أحمد التجاني خاتمه  
للأقطاب المحمديين بيقين لا محي الدين بشهادة محي الدين»، الطبعة الثالثة، 1995، مطبعة القاهرة بالأزهر مصر.

كما قال الخضر لموسى عليهما السلام في أول أمرهما، ولكن لا بد من تقييد قبول العذر بأن يكون المنكر بحيث إذا أُخبر بحقيقة الحال أذعن ورجع الحق كما أذعن موسى للخضر عليهما السلام في آخر أمرهما.

## فصل

ومدار طريقة شيخنا أبي العباس التجاني رحمته الله على قطبين:

الأول: الصلاة المفروضة بآدابها على الوجه الأكمل على قدر الإمكان.

الثاني: الصلاة على رسول الله رحمته الله بالإكثار منها آناء الليل وأطراف النهار، مع مراعاة الأدب مع حضرة الله تعالى، وحضرة رسوله رحمته الله بالإخلاص والتعظيم والمحبة.

## فصل

وأما عمود نسبه رحمته الله، فإنه مرفوع إلى سيدنا محمد المهدي المعروف بالنفس الزكية، بن عبد الله الكامل، بن الحسن المثني، بن الحسن السبط، بن الإمام علي بن أبي طالب رحمته الله، ومولاتنا فاطمة الزهراء، بضعة رسول الله رحمته الله، ذكره الثقات وحرروه، وذكره الشيخ رحمته الله عن نفسه وعن آبائه العلماء الأئمة الكرام. والناس مصدقون فيما حازوه من النسب لأنفسهم، لاسيما من هو مسلم العدالة والولاية، والتبحر في العلوم الشرعية الظاهرة والباطنة. فقولكم، أيديكم الله وأرضاكم: "ويذكر أنه شريف فأعظمه، على قدر صحة ذلك عندي وضعفه" اهـ. من العجب بمكان، ولكن أنتم أعلم وأعلم. وما ذكرنا هذا فضولا، ولكن القول للقول سلم، وأما من بلغكم ذلك على شك وارتياب وهو يسر حسواً في ارتعاً فيقال له لما حيل بينه وبين ما ابتغى:

عبد شمس أبي فإن كنتِ غصبي فاملئي وجهك الجميل حموشا

## فصل



وأما أتباعه ﷺ الذين بلغك المبلغ عنهم أنهم لا إمام ولا مأموم، أي ليسوا بشيء، فإنهم كما قال القائل والله العظيم:

هم الذخر للملهوف والكر للرجى  
بهم يهتدي للعين من ضل في العمى  
هم السؤل المطلوب والقصد  
هم الناس فألزم إن عرفت طريقهم  
ومنهم ينال الصب ما هو طامع  
بهم تجذب العشاق والبين شاسع  
وذكرهم للصب في الحب شافع  
ففيهم لضر العالمين منافع

وإنهم والله من خير هذه الأمة، وهم بحمد الله مطهرون من كل مذمة، وكيف لا وهم الصائمون القائمون، يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، فمنهم من لا يعرف المنام بالليل أصلا، ومنهم من لا يعرف الطعام والشراب بالنهار إلا الأعياد، ومنهم من لا ينقص ورده عن عشرة آلاف من الصلاة على رسول الله ﷺ بصلاة الفاتح لما أغلق بين اليوم واللييلة، ولا يدعون دعوى ولا مزية ولا خصوصية ولا تمييزا عن الجنس، كل ذي حرفته، وكل ذي شغل في شغله، مع أنهم منهم المتصرفين في الكون بالأحوال الصادقة لا بالخواص والاستعدادات الطبيعية. فلا شك أنهم السادات الملامتية الذين رئيسهم ذو الخلال أبو بكر الصديق الأكبر ﷺ وعنهم<sup>(1)</sup>.

حسبي بهم من غيرهم بدلا فهم  
إني ختمت على الضمير بحبهم  
وجعلته حرما لهم فسواهم  
إن لاح لي من أفق مغناهم سنى  
روحي وريحاني وبُراء سقامي  
فغدا هواهم فيه زهر كمام  
ما إن له بحماه من إمام  
فعلى الوجود تحيتي وسلامي

وإنما عرفناكم - أعزكم الله - بجلالتهم الحقيقية التي لا شك فيها بالمشاهدة والعيان، التي لا تحتاج إلى دليل ولا برهان، وإلا لم يصح شيء في الأذهان، لأن الذي بلغكم إنما أخبركم أنه ليس له طريق إلا الرقص واللعب، فحملتكم الحمية الإيمانية، والغيرة الإسلامية، حتى تلوتم في حقهم، من أجل تلك

(1) يقول سيدي الحاج علي التماسيني ﷺ: "لو كانت البحار مدادا والأشجار أقلاما وجميع خلق الله كتابا ما قدروا على إحصاء من تخرج على يد الشيخ النجاني".

الحمية، قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدُّيقًا﴾<sup>(1)</sup>.

فبقول سبحان الله العظيم!!! أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، يُشبهه بالكفار؟ بل بأقبح المشركين الذين كانوا يشوِّشون على رسول الله ﷺ في صلاته وطوافه، يقفون عُراة، بعضهم عن يمينه ﷺ وبعضهم عن يساره، ويصفقون ويرفعون أصواتهم بالهجر والفحش، ويصدون كل من أراد الاستماع لقراءة النبي ﷺ للقرآن العظيم. هذا أحد الوجوه في تفسير الآية الكريمة وأحسنها، فأين حالة المؤمنين التجانيين ﷺ لو لم يكن لهم إلا حالة الإيمان الذي خير، والمؤمن بخير على كل حال، من حالة أولئك البعداء المشركين الذين لا حالة أقبح ولا أخزى من حالتهم؟ وأين وجه الشبه بينهم؟ لات حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ولكن الغيرة المتقدمة تحمل على مثل ذلك وأكثر من ذلك. قال ﷺ: "إن الغيرة لا تبصر أعلا الوادي من أسفله".

وأما ذلك المبلِّغ من الداغلة الذين ابتلاهم الله تعالى بكراهة أهل الخير، والازدراء بأهل الإيمان، فليس معه كلام، ويكفيه ما رواه الإمام مسلم في صحيحه قال: حدثنا عبد الله بن سلمة ابن قعنب قال حدثنا داوود يعني ابن قيس عن أبي سعيد مولى عامر بن كُرَيْز عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى هاهنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه". اهـ. وإن كان من أهل الخير المغفلين الضعاف الأفهام، فإن قوله غير مقبول في هذا المقام. كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسدا وبغيا إنه لدميمٌ

## فصل

وأما قولكم رضي الله عنكم: وأما الطريق الذي يذكر التجانيون عن التجاني فليست بطريق، إنما ذكروا تواجداً ورقصاً ولعباً وهجراناً لأولياء الله تعالى، هذا ما بلغني من طريقهم.

فقولٌ له وقع الأسننة لم أزل أكفُّ عِنانا عنه عند طراد

وما أحسن قولكم "هذا ما بلغني" فإن كان المراد بالطريق هو المثابرة على طاعة الله تعالى وذكره، والإفراط من الصلاة على رسول الله ﷺ، وإقامة الفرائض على أكمل الوجوه، واجتناب المنهيات، والعمل على الإخلاص والشوق والمحبة، فوالله المعبود ما رأينا طريقاً أحسن من طريق التجانيين ﷺ وإن كان الطريق شيئاً آخر، فليس لهم طريقاً إلا ما ذكرنا.

وإن كان من مراد من بلَّغكم بالرقص واللعب هو ذكر الله تعالى على الصفة الموجودة اليوم في جميع أمصار المسلمين، وفي جُلِّ حضرات المشائخ، وزوايا الأولياء شرقاً وغرباً من غير نكير، وتلك الصفة هي مراد الأقدمين بالتغيير والذكر بالسماع، فقد اختلفت الناس فيه قبل اليوم بالجواز والكرهية والمنع، وتفصيل الأقوال فيه مشهور، وقد أَلَّف كل فريق تأليف تؤيد مذهبه، وفُرغ من ذلك قبل هذا الزمان بكثير، والمسائل الخلافية الاجتهادية ليس لأحد أن يستدل على مجتهد بقول مخالفه وأما اليوم فقد وقع الاتفاق على الجواز بعد ذلك الخلاف، وجرى به عمل المسلمين في أمصارهم المعتبرة التي تؤخذ الأحكام الشرعية من اتفاقهم، فكان الأمر فيه كما قال العلامة الحجة المتبحر الأورع الأتقي، سيدي مَحْنُصُ بابا، أبقى الله بركته وبارك في وجوده للمسلمين والإسلام آمين:

جرى على ذلك مُذ أعصار شرقاً وغرباً عمل الأمصار  
فوقع الإجماع بعد الخُلف فيه فجاز اليوم دون خُلف

وإن كان إنما قال ذلك في الاجتماع على الذكر والجهر به، ولكن الحكم واحد والعلة واحدة، فإن كان مراد مبلَّغكم باللعب هو هذا، فقد أفضى به إتباع هواه إلى تسمية ذكر الله تعالى لعباً وتسمية الذاكرين لله تعالى من الأولين والآخرين لاعبين، وقد أوقعه بغيه على أولياء الله تعالى التجانيين في تضليل

أعلام الأمة وهداتهم الذين هو وغيره في ظلهم، وقد باء بها والعياذ بالله مما ابتلي به.

قال الأستاذ أبو القاسم القشيري رحمته الله في «رسائله»: "سألت الأستاذ أبا علي الدقاق غير ما مرة، كأني أطلب رخصة في السماع. فلما رأى طول معاودة سؤالي له قال لي: قال المشايخ: كل ما جمع قلبك على الله تعالى فلا بأس به، وقيل لأبي سالم: كيف تنكر السماع وقد كان الجنيد وسري وذو النون يفعلونه فقال: كيف أنكروه وقد أجازوه من هو خير مني؟" اهـ كلام «الرسائل».

وفي «قوت القلوب»: «إن أنكرنا السماع أنكرنا على سبعين صديقاً من خيار هذه الأمة، وإن كنا نعلم أن الإنكار أقرب إلى قلوب القراء، إلا أننا لا نفعل لأننا نعلم ما لا يعلمون، وسمعنا من أحوال السلف ما لا يسمعون". اهـ.

قال في «عوارف المعارف»: قول الشيخ أبي طالب هذا معتبر لوفور علمه، ومعرفته بأحوال السلف، ومكان تقواه وورعه وتحريه للصواب". اهـ.

قال الشيخ ابن البناء في «المباحث الأصلية»:

وحيث كَلَّتْ نُجْبُ الأبدان      قيل أحدها يا حادي الأضعان  
وهو صراط عندهم ممدود      يعتبره الواجد والفيقد

وقول أبي علي الدقاق المتقدم، وهو "قال الشيخ: كل ما جمع قلبك على الله تعالى الخ"، هو مثل ما نقل القاضي عياض، عن ابن مهدي قال: "سمعت مالكا يقول: لو كنت أعلم أن قلبي يصلح بالجلوس على كُناسة جلست". اهـ. وقال الجنيد: "كل ما يجمع العبد على مولاه فهو مباح".

وقال الشيخ زروق: "معظم نظر القوم إلى ما يجمع القلوب على مولاه، فمن ثم قالوا بأشياء في باب الأدب أنكروها من لم يعرف قصدهم". اهـ.

والقصيدة النونية المروية بالتواتر عن أبي مدين رحمته الله، ما تركت لقاتل مقالا إن كان ممن ذاق من مشاريب القوم لا أحرمننا الله من ذلك، وإلا فينشد له بيت واحد منها وهو:

إذا لم تذق ما ذقت الناس في الهوى      فبالله يا خالي الحشا لا تُعنّفنا

وقول عز الدين بن عبد السلام وهو:

فإن لم تدرك المعنى وتدري      حقائق ما أقول فلا تلمني  
ومن حضر السماع بغير قلب      ولم يطرب فلا يلم المغني  
وإن تك يا عدول جهلت أمري      فدفع عنك الملام وخلي عني

وجلالة عز الدين لا تخفى على أحد، وأبو مدين رضي الله عنه في الخلق، وهو ممن أخذ عن الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه.

قال الشيخ الشعراي رضي الله عنه في «اليواقيت والجواهر»: «إن الخضر عليه السلام سئل عن أبي مدين فقال فيه: إنه جامع لأسرار المرسلين، لا أعلم أحدا في عصري هذا أجمع لأسرار المرسلين منه». اهـ.

وهذا الرقص الذي ينكره الجاهل به هو الذي قال فيه القاضي عياض في «الإكمال» ما نصه: "خاف عمر رضي الله عنه أن يكون مما لا ينبغي فجصّب الحبشة من أجله فزجره النبي ﷺ وقال لهم دونكم. قال عياض ففيه أقوى دليل على إباحته إذ زاد ﷺ النبي على إقرارهم أن أغراهم" اهـ بنقل المواق في «سنن المهتدين».

وها أنا أصفه لك أيها الشيخ حتى كأنه حاضر عنده، وهذه الكيفية الموجودة اليوم التي جرى بها العمل أصلها للسادات الخلوئية رضي الله عنهم، وتبعهم الناس عليها والله أعلم. وهي أهم في عشية يوم الجمعة، إذا بقي للغروب نحو ساعة واحدة، يجلسون جلوس أحقر العبيد بين يدي أعز مالك غالب قاهر، ثم يفتتحون بالبسملة والفاتحة، ثم بالصلاة على رسول الله ﷺ بأصوات تكون أولا ضعيفة لطيفة، تعلم منها الذلة والخشوع والمسكنة والخضوع، ثم يشرعون في الكلمة الطيبة، ولا يزالون يرددونها على كيفيات معلومة، وجلّها مذكور في «الجواهر الخمس» لغوث الله الشطارية رضي الله عنه، مع حركة معلومة الهيئة عندهم أيضا يشيرون بالنفي يمينا وشمالا، والإثبات إلى أمام، مع الإشارة إلى القلب في الجهة اليسرى، وإيقاع اسم الجلالة على القلب بالقصد والإشارة، وذلك له أثر عظيم. حتى إذا غلب الإثبات عندهم بكثرة الأنوار، وتلاشت في مشهدهم جميع

الأغيار، اقتصروا على اسم الذات الأقدس فأفردوه بالذكر، فيقومون حينئذ على أقدامهم إجلالا لذلك الاسم ومسماه.

صفيُّ إذا تحدي المطايا بذكره رأيت له الأكوار تهنز بالنص  
صفا وقتنا طاب الزمان بوصفه فقوموا على ذكر الحبيب إلى الرقص

فيذكرون قياما بسكينة ووقار في أول الأمر مع حركة خفيفة، ثم بعد ذلك منهم من يهتز على قدر ما يجد ويتجلى في قلبه، إما فرحا بكونه أوقفه مولاه ببابه، وإما بكونه أهله لذكره في حضرة اقترابه مع جملة أحبائه، وإما بكونه عبدا لمالك الملوك الذي تولاه، فيتبه على الأكوان بعظمة مولاه، كما قال عياض:

ومما زادني شرفا وتيها وكدت بأخصي أطأ الثريا  
دخولي تحت قولك يا عبادي وأن صيرت أحمد لي نبيا

وإما لغير ذلك مما لا يمكن إحصاؤه وضبطه لاختلاف استعدادات القلوب، وتوجهات أرواح المتوجهين. وفي خلال هذا الذكر، من أوله إلى آخره، ينشدهم منشدٌ منهم أقوال المتغزلين في حضرة مولانا جل جلاله، وحضرة رسول الله ﷺ، فيزداد بذلك ما يجدون، ويوجد ما يفقدون.

فإن قيل كيف يزيد سماع الأغزال وُجدان الواجد، أو يوجد ما فقد الفاقد؟ فالجواب: إن ذلك من الأذواق التي لا تفي العبارة بشرحها، وقد أشار إلى ذلك في «عوارف المعارف» فقال: "كان الراسبي يُشغل أصحابه بالسماع وينعزل عنهم يصلي، فقد تطرق النغمات مثل هذا المصلي فتزل النفس إليها مُتَنَمِّةً بذلك، فيزداد مورد الروح بذلك صفاءً". اهـ.

وقال الإمام ابن العربي المعافري رحمته الله في «سراج» نكتة بديعة وهي: "أن النفس تميل إلى اللهو، وتسرع إلى الغزل، فينشد المرء الأشعار الغزلية تأنيسا لها، ويقصد بها الحقائق الإلهية والشمائل النبوية تحقيقات معها".

وقال الشيخ أبو حامد الغزالي رحمته الله في «الإحياء» بعد كلام: "يُترلون ما يسمعون على أحوال أنفسهم في معاملاتهم لله تعالى وتقلب أحوالهم، فإن للمريد لا محالة مقصدا، وهو معرفة الله تعالى والوصول إليه، فإذا سمع ذكر خطاب أو

عتاب، أو قبول، أو رد، أو وصل، أو هجر، أو قرب، أو بعد، أو تلهّف على ما فات، أو تعطّش إلى منتظر، أو شوق إلى وارد، أو طمع، أو يأس، أو وحشة، أو استيناس، أو وفاء بوعد، أو نقض لعهد، أو خوف فراق، أو فرح بوصول، أو ذكر ملاحظة الحبيب، أو مدافعة الرقيب، أو همول العبرات، أو ترادف الحسرات، أو حلول الفراق، أو عسر الوصال، أو غير ذلك مما تشتمل عليه الأشعار الغزلية، فلا بد أن يوافق بعضها في حال المرید في طلبه فيجري مجرى القَداح الذي يوري زناد قلبه فتشعل به نيرانه، ويقوى له انبعاث الشوق وهيجانه، وتمجم عليه بسببه أحوال مخالفة لعادته، ويكون له مجال رحب في تزييل الألفاظ على أحواله، فالسماح يُهَيِّج الشوق إن كان ثم شوق حاصل، وإن لم يكن ثم شوق حاصل فالسماح يجتلبه، فللكسب مدخل في باب الأحوال، ولذلك ورد الخبر بالأمر لمن لم يحضره البكاء أن يتباكى، فإن هذه الأحوال قد تُتكلّف مبادئها، إلى أن قال: "فإن انضاف إليها صوت طيب، ونغمات طيبة موزونة، زاد وقعه". اهـ. من «الإحياء» بنقل العلامة العارف بالله تعالى سيدي محمد بن يوسف المواق.

وقال الشيخ الإمام سيدي محمد بن عبد الله الهبطي في «شرح الصغير» لنونية أبي مدين الغوث عند قوله فيها:

إذا اهتزت الأرواح شوقاً إلى اللقا نعم ترقص الأشباح يا جاهل المعنى

بعد الكلام على الروح والشوق ما نصه: "قال الإمام ضياء الدين أبو النجيب عبد القاهر السهروردي رحمته الله: ثم إن أهل السماع في حل سماعهم يتفاوتون، فمنهم من يغلب عليه في حال السماع الخوف والحزن والشوق، فيؤدي به إلى البكاء والأنين والشهقة وتخريق الثياب والغيبة والاضطراب، ومنهم من يغلب عليه الرجاء والحب والاشتياق، فيؤدي به إلى الطرب والرقص والتصنيف". اهـ.

ثم قال الهبطي: "يا جاهل المعنى"، أي المقصد عند القوم بالوجد وما ينشأ عنه من رقص الأشباح بسبب اهتزاز الأرواح، واهتزاز الأرواح بسبب تذكّارها ما كانت عليه من المسامرة مع الحبوب يوم أُلستُ برّبكم، ولذلك قال الجنيد

ﷺ، لَمَّا سئل عن شخص وقور لا يحل حَبْوَةَ وقاره بحال، فإذا سمع صوتا موزونا يظهر فيه قلق، وتصدُر منه حركات غير معتادة، فقال الجنيد: لما خاطب الحق سبحانه وتعالى يوم الميثاق ذُرَّات ذُرِّيَّات آدم، بقيت حلاوة ذلك الخطاب في مسامع أرواحهم، لا جرم إذا سمعوا صوتا طيبا تذكروا حلاوة ذلك الخطاب فتظهر منهم الحركات الغير المعتادة شوقا وطربا". اهـ كلام الإمام الهبطي رحمه الله تعالى.

ومعلوم ما وقع للقاضي الذي منع قوما صوفية من ذكر الله جهرا، كما هو الشأن، فكانوا يذكرون سرا، فتضرروا بذلك غاية الضرر، حتى مات بعضهم من ذلك، فتهدمت دار القاضي عليه مع جميع أهله وأولاده، وجميع ما يملك من الحيوان وغيره، كما ذكره الشيخ الشعراي رحمته الله في «العهود المحمدية».

ولا شك أنهم في حالة هذا الذكر الذي وصفناه لا يتأتى أن يخطر في بالهم لا مال ولا ولد ولا جاه، ولا نفع ولا ضرر، ولا غير من الأغيار، لأن جوارحهم كلها وأعضاءهم عن آخرها ذاكرة، وظاهرهم وباطنهم مستغرق في مذكورهم، مُتَّجِعٌ بكليته عليه، فأَيُّ جمع أقوى من هذا الجمع، وآية حالة غير هذه تفيد مثل هذه الإفادة العظيمة؟ بل قل ما تتفق هذه الجمعية لأكابر المجتهدين الذاكرين بغير هذه الكيفية، ولهذا اختار الأئمة رضوان الله عليهم الذكر بهذه الكيفية الشريفة، بهذا الاسم الشريف، في هذا اليوم الشريف، والساعة الشريفة، التي كاد المعتبرون أن يتفقوا على أن هذه الساعة هي ساعة الجمعة. إذا محاسني السلاقي أصولُ بها كانت ذنوبا فقل لي كيف أعتمد

## فصل

فلينظر الموفق الذي شرح الله صدره للحق، وفهم مقاصد الأولياء وآدابهم، إلى هذه الحالة الشريفة التي سماها ذلك المبلِّغ ضلالا ولعبا، وآذى الله تعالى ما لا يحصى من الأولياء بغيا عليهم، واستخفافا بجرمة الإيمان، ورضى عن نفسه، واحتقارا لغيره من المؤمنين، مع ما تحصنوا به من حرمة الإيمان لو لم يكن



لهم من خصال الخير غير الإيمان. ﴿وَالَّذِينَ يُؤْخِذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بغيرِ  
مَا اكْتَسَبُوا فَقَعِ لَهُمْ كَلِمَاتٌ مُّبِينَةٌ﴾ (1).

قال الشيخ محي الدين بن عربي رحمته الله في باب الوصايا من «الفتوحات»: "إياكم ومعادة أهل لا إله إلا الله، فإن لهم الولاية العامة، فهم أولياء الله تعالى ولو أخطأوا وجاءوا بقرب الأَرْضِ خطايا لا يشركون بالله شيئا، فإن الله تعالى يتلقى جميعها بمنزلها مغفرة، ومن ثبتت ولايته حرمت محاربتة، وإنما جاز لنا هجر أحد من الذاكرين الله لظاهر الشرع من غير أن نؤذيه ونزدرية" وأطال في ذلك رحمته الله.

قال السيد البرزولي رحمته الله: "رأيت كثيرا من أشياخي ليس ذلك طريقهم، لا ينكرون على هؤلاء القوم، ثم قال ولا يجوز أن يُستدل على مثل هذا بقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (2).

وفي «التمهيد»: من سرته حسنته وساءته سيئته إنه مؤمن، فمن كان كذا فمن أين تكون الشهادة عليه بغير الإيمان؟ قال: "وقد ضلت جماعة، وخالفوا أهل السنة والجماعة، واستدلوا بظاهر قوله تعالى: (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا)<sup>3</sup>، وانظر لو كانت حسبته تسوغ من هذا الوجه لكانت لسيدنا عمر بن الخطاب رحمته الله الذي قال فيه رسول الله ﷺ: "إن كان في أمي محدثون فعمرو منهم"، ومع ذلك لما لقيه سيدنا معاوية في موكبه العظيم قال: هذا كسرى العرب، ثم سأله سيدنا عمر، فقال له سيدنا معاوية رضي الله عنهما: نحن بأرض العدو، والجواسيس كثيرون بها، فأردنا أن نُظهر من عز السلطان ما نُرهبهم به، وإن همتي انتهت، فقال: لا أمهك ولا أمرك، إن كان ما تقول حقا إنه لرأي أريب، وإن كان باطلا إنه لخدعة أديب". اهـ كلام البرزولي.

وانظر ما تقدم عنه من قوله: "ولا يجوز أن يُستدل على مثل هذا بقوله تعالى: (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا)<sup>4</sup>، الخ فإن الاستدلال على السادات

(1) الأحزاب: 58.

(2) الكهف: 104.

(3) الكهف: 104.

4

التجانيين رضي الله عنهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْوِيَةً﴾<sup>1</sup>. أخطر وأهول والله سبحانه غفور رحيم.

قال الشيخ البركة المواقُ سيدي محمد بن يوسف العبدري رحمه الله: "رويت عن شيخي المنشوري، عن جدي ابن بقي، عن شيخه المقرئ أنه كان يقول: الشطح كناية، والكرامة عناية، والاعتراض جنائية، إياك<sup>2</sup> ولم". اهـ.

وقال في «التمهيد»: "نظر ابن عمر رضي الله عنهما إلى الكعبة فقال: والله إن لك حرمة، ولكن المؤمن أعظم حرمة منك، حرّم الله عرضه وماله، وأن لا يُظن به إلا خيراً". اهـ.

وكان من حق المبلّغ الذي بلغكم، أيديكم الله، إن كان ممن لا يرى السماع، مع ما تقدم من أدلة الجواز والاتفاق عليه اليوم، أن يقول: نحن لا نرى هذا، ولا نعرف شيئاً منه، ولعلّ ما وقع عليه اتفاق الأمصار اليوم له وجه حسن لم نطلع عليه، فإن الأمة لا تجتمع على ضلال، فلو قال مثل هذا من القول قد سلم من هذه الورطة الشنيعة، غفر الله لنا وله ولجميع المسلمين آمين.

## فصل

وبقي أن نقول في قولكم من بلغكم "أن شيخنا أبا العباس التجاني رضي الله عنه ليس من أهل التربية":

خذها وهات ولا تمزج فتفسدها      الماء في النار أصل غير مطرد  
إن أراد بالتربية التربية المشهورة الاصطلاحية التي كان سلكها وسلّك بها  
الجنيد والسري وابن أدهم وأمثالهم، فإنما اليوم طريق مهجورة مندثرة الأعلام،  
قد نص العلماء رضي الله عنهم على أنّها مضموسة لا يمكن لأحد اليوم الأخذ عليها.

قال الشيخ أبو مدين الغوث رضي الله عنه:

واعلم بأن طريق القوم دارسة      وحال من يدعيها اليوم كيف ترى

وذلك في زمن أبي مدين الغوث رضي الله عنه، وكان في المائة السادسة، لأن وفاته كانت سنة 594، فأحرى اليوم.

فمن ادعى التربية اليوم بالمعنى المذكور فإن شاهد الحال يكذبه، وذلك أن أحوال السلف الصالح رضوان الله عليهم لا يخفى شيء منها، ونحن نرى ونشاهد من ادعى ذلك ونرى أتباعهم وأحوالهم مناقضة لأحوال السلف الصالح أكلا وشربا ولباسا، ورغبة في العاجلة وطلباً للرئاسة، وتماثراً على أبواب الأمراء بلا ضرورة، تدعوهم إلى ذلك إلى غير ذلك مما لا يمكنهم إنكاره.

ولهذا قال أبو مدين رضي الله عنه: "و حال من يدعيها اليوم كيف ترى"، فسَمَى ذلك دعوى.

وقال: "إن حالهم كيف ترى مخالفة لدعواهم ومكذبه لهم في ما ادعوا، فلو كانوا يعقلون ما ادعوا أمرا وهم متلبسون بشاهد من أنفسهم على أنفسهم".

وقد هتك الشيخ الشعراي رضي الله عنه ستر المدعين لذلك في رسالته المسماة بـ «موازين القاصرين».

وقال شيخنا أبو العباس التجاني رضي الله عنه: "مثل من طلب الاستقامة التامة اليوم كمثل من طلب سلما يصعد به إلى السماء" اهـ. يعني رضي الله عنه أن الاستقامة التامة هي ثمرة التربية المعلومة لأنها مجاهدة النفوس على سلوك طريق السلف الصالح شبرا بشبر، وإصعبا بإصعب، وذلك في هذا الزمان من قبيل الحال العادي، كالصعود إلى السماء بسلم ونحوه.

وقال الشيخ زروق رضي الله عنه: "قال شيخنا الحضرمي: ارتفعت التربية والاصطلاح، ولم يبق إلا الإفادة بالهمة والحال". انتهى.

وقال الشيخ زروق أيضا، ولعله عن شيخه المذكور: "رأيت أبواب الله تعالى قد استدارت للغلق، ولم يبق مفتوحا إلا باب الصلاة على رسول الله ﷺ". اهـ.

قال الشيخ العارف بالله تعالى أبو علي اليوسي رحمه الله: "قد نصّ شيوخ الطريق على انقطاع التربية المصطلح عليها منذ زمان، وكرهوا السلوك عليها والتسليك بها". اهـ.

وقال الشيخ سيدي عبد الوهاب الشعراني رحمته الله في «موازين القاصرين» ما نصه: "وسبب ترك العارفين فتح باب المشيخة والتسليك في هذا الزمان، شهودهم كثرة البلايا النازلة على الخلق ليلا ونهارا، وعلمهم بأن الأمر راجع إلى الورا، وقد اشتد الأمر، ولا يزداد الأمر إلا شدة حتى تكمل الدورة وتقوم القيامة"، ثم قال: إذا علمت هذا علمت أن ترك العارفين فتح هذا الباب وفي هذا الزمان هو الصواب، فلا يفتح الآن إلا من أعمى الله تعالى بصيرته وبصره من هؤلاء المدعين للمراتب والمتنازعين عليها". اهـ كلام الشعراني رحمته الله.

وإن أراد المبلّغ المذكور بالتربية الترقية بالهمة والحال، وملايسة الزمان على مقتضى الحق سبحانه وتعالى، فإن شيخنا رحمته الله هو سيد المرّين، وقدوة السالكين في الأمرين جميعا.

أما الترقية بالهمة فقد شاهدنا أقواما من أصحابه من أعمار الناس، وجفافة العوام، إما دباغ أو خراز أو حائك أو فلاح، فيس البعد الأبعد من الخير، فما هو إلا أن وقعت عليه نظرتة، ونزل عليه طابعه بأن أتاه صادقا في طلب الله تعالى وتلقن منه، وذكر ورده الحمدي أدنى مرة، فتنقلب أحواله، وتصفوا مشاربه، وينشط لعبادة ربه، ويعظم شوقه إلى ما عند الله، وتقل رغبتة في العرض الفاني، وربما نطق بالحكمة، وتفجر بالحقائق، ويشرق ظاهره بالأنوار التي في باطنه، وهذا القدر مشاهد في أصحابه لا ينكره أحد ممن مارسهم وخالطهم، وذلك بلا خلوة ولا رياضة، وقد ضمن له رسول الله ﷺ أن من داوم على ورده بل حتى على محبته فقط لله تعالى لا يموت إلا وليا.

وخاصية ورده رحمته الله أنه لا يذكره أحد صادقا في طلب الله تعالى إلا ظهرت عليه تلك الأحوال المذكورة أو جلها جملة أو تدريجا على قدر قوة استعداده وضعفه.

وأما الأمر الثاني، وهو مسابقة الوقت، فهو عمدة حاله رضي الله عنه، يحض على ذلك ويقول: "الفقير ابن وقته، ولون الماء لون إنائه، وما ترك من الجهل شيئاً من أراد أن يظهر في الوقت غير ما أظهره الله تعالى". ويدل على مثل ما قال محي الدين الحاتمي رضي الله عنه وهو قوله: "اعلم يا بني أن للحق وجوها كثيرة فخذ منها ما يوافق زمانك".

## فصل

ومن ذلك نمية رضي الله عنه أصحابه عن زيارة التعلُّق والاستمداد لغيره من الأولياء الأحياء والأموات<sup>(1)</sup> وذلك بأمر سيد الوجود رضي الله عنه له بذلك. قال له رضي الله عنه: "مُر أصحابك أن لا يزوروا أحداً من الأولياء إلا إذا مروا بأصحابي فليزوروهم". اهـ.

مع أن هذا الأمر وهو عدم زيارة المريد لغير شيخه معروف مشروط عند المعتبرين من المشايخ، وإنما تركه من تركه، إمّا لعدم معرفته به لكونه أجنبياً من الطريق وغلا فيها، وإمّا لكونه متهاوناً به وبما ينشأ عنه من المفاسد، لظهور مصلحة أخرى له هي أكد عنده من ذلك، والله تعالى أعلم.

وقد أشار أبو العباس الشريشي إلى الحكمة في عدم إباحة الزيارة للمريد في الرائية بقوله:

فإن رقيب الالتفات لغيره يقول لحبوب السراية لا تسري

والشريشي يروي عن العالم الكبير، قاضي القضاة، أبي صالح سيدي نصر بن الشيخ سيدي عبد الرزاق بن الشيخ الكامل مولانا عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه، والحجة القاطعة في ذلك قول الشيخ والدكم المبرور، سيدي محمد بن المختار رضي الله عنه في «جنة المريد» ونصه، بعد ما ذكر وظائف الشيخ: "ثم لا يترك أصحابه يزورون شيخاً آخر، ولا يصلح ذلك بالمريد، إذ المضرة بذلك متحققة الوقوع" اهـ.

(1) انظر رسالة مولانا العربي ابن السائح، المرجع السابق، ومخطوط المقدم سيدي محمد كيون المسمى «رفع العتاب عن من منع الزيارة من الأصحاب»، ومخطوطه الآخر «الدر المنظوم في نصرة القطب المكتوم».

قال في «الإبريز»: "و كنت مع الشيخ عليه السلام ذات يوم في الباب الجديد باب من أبواب مدينة فاس فنظر إليّ وقال: لا يطمع أحد في معرفة الله تعالى وهو لا يعرف معرفة الرسول عليه السلام، شيخه، ولا يطمع أحد في معرفة الرسول عليه السلام وهو لا يعرف شيخه، ولا يطمع أحد في معرفة شيخه وهو لم يصل على الناس صلاة الجنّازة. فإذا خرج لناس عن نظره، وصار لا يبالي بهم في أقواله وأفعاله وشؤونهم كلها، جاءت الرحمة من حيث لا يحتسب" اهـ.

وقد ورد في الخبر: "اجعل عملك كله لوجه واحد يكفيك الوجوه كلها" اهـ. ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لَرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمَّةُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(1)</sup>. ولعل هذا هو مراد من بلغكم عن السادات التجانيين عليهم السلام أن فيهم هجرانا لأولياء الله تعالى، كما هو في كتابكم إلينا، بل هو مراده بلا شك، لأنك لو سألته عن جزئية واحدة من هذا المدعى لما وجد إلا أن يقول: "أنهم لا يزورون أحدا غير شيخهم، أي لا يتعلقون إلا به، ولا يستمدون إلا منه، فهذا هو الذي سماه هجرانا لأولياء الله تعالى.

كلا والله العظيم إنهم ليعظمون أولياء الله تعالى غاية التعظيم، وذلك من الآداب المشروطة عليهم في طريقتهم، وكأن ذلك المبلغ يرى أن من لم يزر الأولياء - أي لم يستمد منهم - فقد هجرهم، ولم يعظمهم ولم يحترمهم، وهذه عبارة ظاهرة، فنسبة ذلك إلى التجانيين عليهم السلام من التنقيص للمسلمين بلا منقّص وهو خطر، لا سيما إن جاء من قبل من يُستسقى بهم المطر أمثالكم، أسعدكم الله.

وبالله عليكم، من هو غير معظّم لأولياء الله تعالى؟ هل هم السادات التجانيون الموصوفون، أو هذا المبلغ الذي أعرض عن الاشتغال بنفسه، ومعالجة عيوبه، والتزود لمعاده، واشتغل بالفضول البعيد عنه بمراحل، ودأب على تنقيص أولياء الله المؤمنين، ونسبته إليهم ما هم برآء منه؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

## فصل

ثم إن قولكم - أدام الله رفعة أقدامكم وإشراق أنواركم - فيما كتبتموه: "ولا شك أنه لا أهل طريق إلا يعلمون أن الطريقة القادرية أفضل، ولا أصحاب شيخ إلا يعلمون أن الشيخ عبد القادر أفضل" انتهى. ما فهمنا ما تضمنه من هذه الكلية، ولا تصورنا إدخالها تحت القواعد العلمية، ولا في جلاله قدره، ولا في فخامة شأنه ولا في سموه عنايته، ولا في عموم هدايته، وشهرة ولايته، فإنه إمام الصديقين، وقدوة المستهدين، وحجة العارفين.

وإنما الكلام فيما اقتضاه قولكم المتقدم من أفضليته على كل من سواه من الأولياء يقينا وجزما، وما خفي عنكم - أيدكم الله - ما وقع من الخلاف في تفضيل الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام بعضهم على بعض، ما عدا نبينا سيد الوجود ﷺ، الذي ثبتت سيادته على بني آدم وغيرهم من جميع المخلوقين، وسائر العالمين.

وكذلك ما وقع من الخلاف في تفضيل الصحابة الكرام ﷺ بعضهم على بعض، ما عدا الصديق ﷺ.

فالتفضيل كما علمتم توقيفي: ما ورد من الشارع ﷺ قلنا به وما لا فلا. وكذلك ما وقع الإجماع عليه كتفضيل الخلفاء على الترتيب المشهور، قال الشيخ الشعراي ﷺ في «لطائف المنن»، بعد كلام نفيس: "ولا يلزم من الأفضلية الظاهرة الأفضلية الباطنة، بل الواجب علينا محبة الجميع والوقوف عند ما أمر الله به". اهـ.

وقال الشيخ ابن عباد ﷺ في معنى الأفضلية التي ثبتت بين الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ومن في معناهم ما معناه: "إنما وقعت الأفضلية بينهم بحكم الله تعالى لا لعلة موجبة ووجدت في الفاضل دون المفضول، فللسيد أن يفضل بعض عبده على بعض وإن كان كل منهم كاملا في نفسه، والتمثيل بالسيد أمر تقريبي، إذ لا يخلوا من البواعث والأغراض، وحضرة مولانا جل وعلا متهمة عن ذلك"، إلى أن قال: "والتفضيل راجع إلى اختيار سيد الجميع، وهو الله تعالى، وبذلك نسلّم من سوء الأدب مع خواص الله تعالى وأحبائه، ومعه سبحانه، وإلا فسوء الأدب لازم لزوما ضروريا، كما تواطأ عليه الجهال،

ولا أقول أنهم في ذلك بمنزلة من هدم قصرا وبنى مصرا، أو بنى قصرا وهدم مصرا، ولكن بمنزلة من هدمهما معا، إذ الأفضل لا يجب أن يُفضَّل بما لم يجعله الله سببا لمفضوليته، والله تبارك وتعالى لا يجب أن يفاضل بين أحبائه بما لم يجعله الله تعالى سببا للمفاوضة بينهم، قال سوء الأدب معهم إلى سوء الأدب مع الله سبحانه وهو عظيم". اهـ.

واعترض الشيخ أحمد بابا كلام الشيخ ابن عباد هذا مردود، وربما قيل إنه من الفضول معدود، وحاصل ما في المسألة من أصلها أن "المزية لا تقتضي الأفضلية" والله أعلم.

ومن ذلك فرار الشيطان من عمر بن الخطاب، ولم يكن ذلك لأبي بكر الصديق رضي الله عنهما، مع ما ورد أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله ﷺ: "لو حدثتك بفضائل عمر طول عمر الدنيا ما فرغت منها، وإنما عمر حسنة من حسنات أبي بكر".

ولهذا قيل إن الكرامة لا تقتضي التفضيل، كما قال الجنيد رحمته الله: "مشى رجال باليقين على الماء، ومات رجال بالعطش وهم أفضل منهم". اهـ.

ومن أجل هذا كان الأكابر لا يرضون بالكرامة، وكان شيخ المشائخ مولانا عبد السلام بن مشيش رحمته الله، يُدعى الجبل الراسي، لأنه ما رضي بإظهار كرامة، ولا إخبار بغيب، فقيل له في ذلك فقال: يعني من ذلك قوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾<sup>(1)</sup> اهـ.

قال في «الجيش الكبير»: "فاعتبر هذا، فإن كثيرا من الناس إذا سمع فضلا لعمل، أو كرامة لشخص، إغتر بها، فاعتقد أفضليته". اهـ.

وإنما قال صاحب «الجيش» ذلك ردا على بعض الجهال حين سمع قول من قال: إن بعض صيغ الصلاة على رسول الله ﷺ يناب المصلي بها مرة واحدة ثواب ختمات من القرآن العظيم، فقال ذلك الجاهل هذا يقتضي أن تلك الصيغة من الصلاة على النبي ﷺ أفضل من القرآن الذي هو كلام الله تعالى، وهذا منه جهل بما تقدم من النصوص المحدرة، والقواعد المقررة.



قال العلامة البركة أبو عبد الله سيدي محمد الخرشبي في «شرح الصغير للمختصر»، عند قول المصنف: "وَفُضِّلَ حج على غزو إلا لخوفٍ وركوب الخ"، بعدما قرر كلام المصنف، ما نصه: "ولا يعارض هذا ما رواه الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: "إن للحجاج الراكب بكل خطوة يخطوها راحلته سبعين حسنة وللماشي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة". اهـ. لأن المزية لا تقتضي الأفضلية". اهـ.

وقال الشيخ محي الدين الحاتمي في الباب 438 من «الفتوحات»: "فإن قلت فما الفرق بين الوارث الحمدي والوارث لغيره من الأنبياء، فالجواب: أن الفرق بينهما أن ورثة الأنبياء آياتهم في الآفاق، من خرق العوائد وغيرها، والوارث الحمدي آياته في قلبه، فلذلك كان الوارث الحمدي مجهولا في العموم، ومعروفا في الخصوص لا غير، لأن خرق عادته إنما هو حال وعلم في قلبه، فهو في كل نفس يزداد علما بربه علم حال وذوق لا يزال كذلك". اهـ.

فإذا كانت الوراثة الحمديّة، التي هي أعظم الموجبات للتفضيل، أمرا خفيا محله القلب، فكيف يقدر أحد أن يفضّل أحدا على أحد من غير إخبار من له العلم بما في القلوب؟ لا محالة أن ذلك خطر محذور، وبيان المحذور الواقع في ذلك، أي في التفضيل بلا إذن، معتبر أنك إذا فضّلت أحدا على أحد فقد نقصت ذلك المفضول وهذا وإن كان يؤمن توهّمه من الخاصة الأقوياء، فإنه لا يؤمن من العانة الضعفاء، كما نبّه عليه قوله ﷺ: "لا تفضّلوني على يونس بن متى".

قال القاضي عياض في «الشفاء»: إنما هي ﷺ عن ذلك سداً للذريعة، لئلا يتوهّم أحد في جانب يونس عليه السلام المتزه ما لا يليق. اهـ.

وذكر مثل ذلك الحافظ بن حجر في شرح هذا الحديث، وكذلك ذكره الجلال السيوطي في «الديباج على صحيح بن الحجاج»، وقال العلامة المقري في «محاضراته»، قال يونس بن حبيب: "أقبح الهجاء الهجاء بالتفضيل، يعني كقول الشاعر:

لشتان ما بين اليزيديين في النداء  
يزيدٍ سليم والأغرّ بن حاتم

وتمام كلام المقرئ: "ولا دليل على وجوب التفضيل، ولا على كون شيء من حقيقة الإيمان يؤمن فيه الخطر ولو من بعض الوجوه، فسُدَّ هذا الباب واجب". اهـ.

وقد نقل العلامة الشيخ أحمد بابا في رسالته المسماة بـ «نيل الأجر والرسول لخدمة آل بيت الرسول»، عن الإمام المتفق على جلالته عز الدين بن عبد السلام في «قواعده الكبرى» في هذا المعنى، مقالة هائلة تركنا نقلها هنا لأنها لا تليق بمواجهة جلالكم بها.

والحجة القاطعة في ذلك هي قول جدكم الشيخ المختار رحمته الله في «الكوكب الوقاد» ونصه: "ولا ينبغي لأحد أن يحكم بتفصيل شخص على شخص، ولا نوع إلا بتوقيف ممن له التفضيل، أو بدليل يستدل به من كتاب الله تعالى، أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، أو إجماع أمته". اهـ.

وأما اعتقاد أفضلية الطريقة القادرية - أيّد الله برهانها، وكثّر في الأمة أهلها - فإنما يجب اعتقاد ذلك على أهلها الذين كتبهم الله في قسمتها، وإلا لو كان كل الناس يعتقدون أفضليتها، ما عدل أحد عنها، إذ العقلاء مجبولون على أخذ الأفضل وترك المفضول، وأما من ليس من قسمتها، فإن كل واحد يجب عليه اعتقاد أن طريقته أفضل من غيرها، وشيخه أكمل من غيره، وإلا لم يحصل على طائل ولا نفع.

قال في «الإبريز»، بعد ما أنشد قول الشريشي المتقدم: "ولا تقدّم من قبل اعتقادك الخ" ما نصه: "قال الشيخ رحمته الله: أي ولا تقدّم من على شيخ المشائخ بقصد الدخول في صحبته حتى تعتقد أنه من أهل التربية، وأنه لا أحقّ منه بما زمانه، وإنما وجب عليه ذلك لأن الشيخ الذي يرى من مريده الالتفات إلى غيره يقطع عنه المادة، والمريد الذي يدخل في صحبة شيخ، وهو يرى في الوجود شيئا مثل شيخه أو أكمل، يبقى متشوقا إلى ذلك الأكمل، فيراه شيخه متشوقا إليه، فيقطع عنه المادة، فلا يكون بالأول ولا بالثاني"، قال الشيخ رحمته الله: "وقد رأينا هذا في زماننا كثيرا، والله يكون لنا وليا ونصيرا". اهـ.

وقد قالوا: "إن الأرزاق المعنوية مثل الأرزاق الحسية السلطانية في الشاهد، فإن الشأن في هذه أن أرزاق الأجناد تخرج من حضرة السلطان وتُدفع للقهرمان الأعظم، فيفرقها على عدد الأمراء والموكلين، يأخذ كل بحسب ما في دوانه، هذا في زمامه فلان وفلان إلى آخر ما هو من جماعته، وهذا كذلك وهذا كذلك. فإذا ذهب أحد من أصحاب الأمير زيد إلى الأمير خالد مثلا، فقال له ادفع لي رزقي المرتب لي من حضرة السلطان، فإنه ينظر في ديوانه فلا يجده فيه، فيقول له ليس لك رزق عندي، فإذا رجع إلى أميره زيد فإنه يغضب عليه، ولا يقبله في الغالب إلا أن تدركه عناية، أو عطفة رحمة.

قالوا: ومثل ذلك الحضرة العلية المقدسة، فإن الإمدادات الإلهية كلها تبرز منها على يد سيد الوجود ﷺ، ثم يفرقها على عدد المشائخ، وكل شيخ يأخذ بحسب ما في ديوانه من الأتباع، وهذا هو الحكمة في أن كل طائفة لا ترى أحسن من طريقها، ولا أكمل من شيخها، لئلا تبطل تلك الحكمة، وتختل القسمة".

وقولهم: فإن الإمدادات الإلهية تبرز على يد سيد الوجود ﷺ ثم يفرقها الخ كلام مجمل تقريبا، وإلا فقد أشار إلى بعض تفصيل ذلك الشيخ محي الدين بن عربي رحمته الله في كتاب «الحجب» ونصه: واعلم أنه ورد أن كل مقام ثان حجاب على من دونه لأن استمدادهم منه، فإن كل من الرجال المعينين يستمد من هو أوسع منه دائرة فيكون، المستمد منه حجابا على المستمد، وجميعهم يستمدون من القطب الغوث فهو حجابهم، وهو يستمد من روحانية أحد الأنبياء الأربعة المتقدم ذكرهم، يعني إدريس وعيسى وخضرا وإلياس، وهم يستمدون من الحجاب الأعظم، وهو ﷺ يستمد من حضرة إطلاق ويمد سائر العوالم العينية والغيبية بحسب ما يطاق، فيمد كل أحد على قدر استعداده لا على قدر سعته وإمداده، فإنه البحر الخضم الزاخر، الذي ليس له أول ولا آخر، ومن نظر بعين قلبه إلى بحر فيضه الجلي، وسريان مدده العلي، وشاهد تلقي سائر الكائنات عنه بالوسائط أو بدونها، اندهش قلبه وطاش لبه، فإن القطب له ستة عشرة عالما إحاطيا، الدنيا والآخرة واحد منها، وهو يمدها

جميعها، ومن فيها، ونبينا ﷺ هو الممد له بهذا المدد التام، ومقويّه باستطاعة هذا المقام. اهـ.

ومرادنا بيان أن مدد الإتياع لا يكون إلا على يد متبوعهم قضاءً أزيلا لا يتبدل، وقد تقدم هذا إجمالا على وجه آخر، وأيضا لذلك وجه آخر يرجع إلى الأول، وهو ما أشار إليه الشيخ زروق رحمته الله، بعدما ذكر أن إتياع الأحسن أبدا محبوب طبعاً، مطلوب شرعاً، وإن التصوف مبني على إتياع الأحسن، واستدل بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾<sup>(1)</sup>.

قال: "والاستحسان يختلف باختلاف نظر المستحسن". ثم قال: "وتعدد وجوه الحسن يقتضي بتعدد الاستحسان، فمن ثم كان لكل فريق طريق الخ كلامه". وقال في محل آخر: "وفي اختلاف المسالك راحة للمسالك، وإعانة على ما أراد من بلوغ الأرب، فلذلك اختلفت طرق القوم، ووجوه سلوكهم، فمن ناسك يؤثر الفضائل على كل حال، ومن عابد يتسمك بصحيح الأعمال، ومن زاهد يفر من الخلاق، ومن ورع يحقق المقام بالاحتياط، ومن متمسك يتعلق بالقوم في كل مناسبات، ومن يريد يقوم بمعاملة البساط، والكل في دائرة الحق بإقامة حق الشريعة، والفرار من كل ذميمة وشنيعة"، انتهى كلام الشيخ زروق.

وانظر إلى ما نقله الشيخ سيدي عبد الوهاب الشعراني رحمته الله في «اليواقيت والجواهر» في المبحث الخمسين، في كرامات الأولياء، ونصه: "فإن قلت: فهل القتل بالهمة، والعزل والولاية، الذي يقع من بعض الأولياء، كمال فيهم أو نقص؟ فالجواب: هو نقص بالنسبة لما فوقه من المقامات، وقد أعطي الشيخ أبو السعود بن الشبلي التصرف في الوجود فتركه وقال: نحن قوم تركنا الحق يتصرف لنا، فكان أكمل من الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمته الله مع أنه تلميذه، هكذا ذكره الشيخ في الباب 192 من «الفتوحات».

وأيضا فإن العارف الكامل لا يجد في الكون شيئا حقيرا يرسل تصريفه عليه، وينفذ همته فيه. ومن شرط نفوذ الهمة أن يكون حقير فيرى صاحب الحال نفسه كبيرا، وغيره حقيرا فيجمع حقارته في قلبه ثم يتوجه إليه فيؤثر فيه".

قال: "وسمعت شيخنا سيدي عليًا الخواص عليه السلام يقول: الكامل من الأولياء هو من مات على التصريف والتدبير اكتفاء بفعل الله تعالى له". اهـ.

ومثل هذا ما ذكره الشيخ العلامة العارف بالله تعالى، الملا إبراهيم بن حسن الكردي الكوراني الشهرزوري، ساكن المدينة الشريفة صلى الله على مشرفها في رسالته المسماة بـ: «المسلك الجلي في شطح الولي»، فإنه نقل عن الشيخ الأكبر الحاتمي عليه السلام من «الفتوحات» في الباب 195 لما تكلم على قوله عليه السلام: "أنا سيد ولد آدم ولا فخر"، وأتى في ذلك بكلام عجيب، وكذا على قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾<sup>(1)</sup>، قال في آخر ذلك: "فهذه كلها لو لم تكن عن أمر إلهي بالوحي لكانت من قائلها شطحا. فإنها كلمات تدل على المرتبة عند الله تعالى على طريق الفخر بذلك على الأمثال والأشكال، وحاشا أهل الله تعالى أن يتميزوا عن الأمثال أو يفتخروا.

ولهذا كان الشطح رُعونة نفس، فإنه لا يصدر عن محقق أصلا، فإن المحقق ما له مشهود سوى ربه، وعلى ربه ما يفتخر وما يدعي، بل هو ملازم عبوديته، مهياً لما يرُدُّ عليه من أوامره، فيسارع إليها، وينظر جميع من في الكون بهذه المثابة، فإذا شطح فقد انحجب عما خلق له، وجهل نفسه وربه ولو انفعل عنه جميع ما يدعيه من القوة، فيحي ويميت، ويؤلي ويعزل، وما هو عند الله بمكان، بل حكمه حكم الدواء المسهل أو القابض، يفعل بخاصية الحال لا بالمكانة عند الله تعالى، كما يفعل الساحر بخاصية الصنعة.

ثم قال الشيخ محي الدين: هذا إذا كان بحق مذموم، فكيف لو صدر من كاذب؟ فإن قلت: وكيف صورة الكذب مع وجود الفعل والأثر منه؟ قلنا: نعم ما سألت عنه، أما صورة الكذب فإن أهل الله تعالى لا يؤثرون إلا بالحال الصادق، وذلك المسمى شطحا عندهم، حيث لم يقترن بأمر إلهي كما تحقق عن الأنبياء فمن الناس من يكون عالما بخواص الأسماء، فيُظهر بها الآثار العجيبة، والانفعالات الصحيحة، ولا يقول أن ذلك عن أسماء عنده، وإنما يُظهر

ذلك عند الحاضرين أنه من قوة الحال، والمكانة عند الله تعالى، والولاية الصادقة، وهو كاذب في هذا كله، ولا يسمى شطحا، ولا صاحبه شاطحا، بل هو كذب محض، صاحبه ممقوت. فالشطح كلمة صادقة، صادرة عن رُعونة نفس عليها بقية طبع، تشهد لصحابها ببعده عن الله تعالى في تلك الحال". اهـ - كلام ابن عربي بنقل الملائ إبراهيم المذكور.

فإن قلت: أن الدليل على أفضلية الشيخ مولانا عبد القادر على جميع الأولياء هو قوله: "قدمي على رقبة كل ولي لله تعالى"، فالجواب: أن هذه المقالة، وإن تلقاها جميع الناس بالإذعان والقبول، فقد حملها الناس على أن المراد أولياء زمانه ولا غير، ويأتي فيها ما تقدم من كونها مزية بدليل قضية أبي السعود المتقدمة، أو عامة في أهل زمانه. وأبو السعود نادر لا حكم له، والحكم للغالب، ولم نر أحدا حملها على ما يُعمّ زمانه وغيره. وعلى فرض وجوده، فقد تقدمت القواعد المقررة المفروغ منها آنفا، و انظر لو حُمِلت المقالة الجيلالية على العموم لناقضها ما نقله صاحب «ممتع الأسماع» وغيره عن الإمام الأعظم، شيخ المشايخ سيدي محمد بن سليمان الجزولي رحمته الله وهو قوله: قيل لي يا عبدي فضلتك على خلقي بكثرة صلاتك على نبيي" اهـ.

وممن صرّح بأن المقالة الجيلانية خاصة بأهل زمانه برزخ الشريعة والحقيقة، وقدوة العلماء والعارفين، أبو العباس سيدي أحمد زروق رحمته الله فإنه قال في «التوطيئة» لبيان فضل الشيخ عبد القادر رحمته الله ما نصه: "إثبات الحكم بالذاتيات ليس كإثباته بعوارض الصفات فقوله رحمته الله: "سلمان منا أهل البيت" من أهل البيت لأنه متصف بجميع جوامع النسب الدينية، حتى لو كان الدين منوطا بالشريا لأدركه.

وقد قيل في قوله عليه السلام: "الأقربون أولى بالمعروف" أنه يعني إلى الله تعالى، إذ لا يتوارث أهل ملتين، فالمعتبر أصل النسب الديني. ثم إذا انضاف إليه الطيني كان له مؤكّدا فلا تلحق رتبة صاحبه بحال.

وقد أُجيبَ عن قول الشيخ أبي محمد عبد القادر الجيلاني رحمته الله: "قدمي على رقبة كل ولي لله تعالى، أنه في زمانه". اهـ.

ثم ذكر جزئيتين من كثرة عبادته وكثرة علمه، يعني مع نسبه الشريف، ففاق باجتماع هذه الثلاثة له جميع أهل زمانه، فاستحق المقالة المذكورة عليهم. فإذا حكّمنا هذا الضابط وأخذنا بمقتضاه، وهو أن كل من اجتمعت له هذه الخصال الثلاث استحق الأفضلية الظاهرة المسلّمة على غيره ممن ليس كذلك، فإن الشيخ الجزولي رحمته الله، لأجل هذه الخصال الثلاث، نال مثل المرتبة التي نالها مولانا عبد القادر رحمته الله، بل تولى الله تبارك وتعالى أن يقول ذلك عنه حيث أخبره به، وإن كان لا فرق في الحقيقة، لأن مقالة الشيخ عبد القادر إنما تكون عن إذن من الله سبحانه.

وكذلك شيخنا أبو العباس التجاني رحمته الله فإنه قد اجتمعت له هذه الخصال المذكورة بلا شك، وزاد خصلة رابعة، وهي كونه في آخر الآخر من الزمان، فلذلك صدرت منه مثل المقالة الجيلانية، بل أزيد منها. وإنما وقعت الزيادة - والله أعلم - للخصلة الرابعة، ولما كان الختم المتقدم ذكره.

وقد أخبره رحمته الله من علو شأنه غيره من الأولياء في الدنيا والأخرى بما يبهر العقول لو ذكرناه. وإنما نذكر الآن شيئاً واحداً اقتضاه المقام، وهو أن جميع الطرق تضمحل، ولا يبقى إلا طريقه<sup>(1)</sup>، وذلك واقع ما له من دافع بحول الله وقوته، وعناية رسول الله رحمته الله، وذلك لسرّ الختم الذي تقدم الكلام عليه.

## فصل

وهذا لا تسعه حوصلة من حجّر فضل الله تعالى، وأراد وفقه على ما عرفه واعتماده وقال حجراً محجوراً، بل يتخذ من وصف مولانا جل وعلا بالإطلاق والاختيار عدواً مهجوراً، نسأل الله السلامة والعافية.

وأراهم لم يجعلوا الواحد القهار في الخلق فاعلاماً يشاء

(1) انظر مخطوط المقدم سيدي محمد كنون المسمى "النطق المفهوم في حل مشكلات الدر المنظوم".

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ، أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ، جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾<sup>(1)</sup>.

لكن نور الحق جلّ فلا يرى إلا بتخصيص من الله الصمد

وما أرى من حجر فضل الله تعالى، وأراد إجراء قضاء الله وقدره على وفق مراده وهواه، إلا كما حكى صاحب «الذهب الإبريز» في مثل هذا، ونصه: ووقعت مناظرة أخرى مع الفقراء المنتسبين إلى خدمة الصالحين عليهم السلام، وذلك أي كنت أنا وهو نختلف إلى بعض الأولياء كثيرا، فلما مات ذلك الولي جعلت أختلف إلى ولي آخر، وبقي هو في الزاوية الأول، فلقيني ذات يوم فقال لي: أردت نصيحتك يا فلان، فقلت له: حُبا وكرامة، وعلى الرأس والعين، وقد فهمت مراده فقال: إنك كنت أولا مع سيدي فلان، وكانت ولايته لا يشك فيها أحد، ولا يختلف فيها اثنان، وقد ذهبت اليوم إلى غيره، فأنت بمثابة من ترك الجواهر واليواقيت واستبدلها بالأحجار، فقلت له: أنت تتكلم عن بصيرة أو عن غير بصيرة؟ فإن كان كلامك عن بصيرة فاذكرها لنا حتى نذكر لك ما عندنا، وإن كان كلامك عن غير بصيرة فاذكر دليله، فقال لي: ظاهر مثل الشمس، فقلت له: فإن قال لك قائل إن كلامك هذا يبعدك من الله ويقربك من الشيطان فبم تجيبه؟ فسكت ولم يدر ما يقول، فقلت له: إني فكرت في دليلك، وجُلت بخاطري في برهانك، فلم أجد لك دليلا إلا أمرا واحدا، فقال: وما هو؟ فقلت له: أنك تزعم أنك شريك لله تعالى في ملكه، بحيث لا يعطي شيئا، ولا يفتح على أحد، إلا بإذنك، والله تعالى في زعمك لا يعطي إلا بإذنك، فمن هذا الطريق تمياً لك الإنكار على عباد الله الصالحين، ولو كنت تعتقد أن الله تعالى لا شريك له في ملكه، ولا منازع في عطائه، لسلمت لعباد الله تعالى ما أعطاهم ربهم عز وجل من الخيرات، فقال الفقير: أنا تائب إلى الله تعالى، والله ما نحن إلا فضوليون وما كنا ننكر إلا بالباطل، والله الموفق". اهـ.



ثم نقول نحن كما قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن يعقوب الفيروزابادي  
في شيخه محي الدين الحاتمي رحمته الله.

والله والله والله العظيم ومن  
إن الذي قلتُ بعضٌ من مناقبه  
وما عليّ إذا ما قلتُ مُعتقدي  
أقامه حجّة للدين برهاناً  
ما زدتُ ألا لعلّي زدتُ نقاصاً  
دع الجهول يظن الحق عدواناً

## تتمّة:

وقولكم أيدكم الله: "فإنّ النجاني لا علم لك به إذ لم تلقه ولم تلق عنه ذا  
علم تثق به إلخ" ظاهره كالصريح في أن من لم يلق أحداً من المشايخ لا يمكنه  
اتباعه، ولا الدخول في حزبه، وأنه إن فعل ذلك مخاطر بنفسه فقط، أو بنفسه  
وغيره إن استتبع أحداً. وهذا يقتضي بفحواه أن من لم يلقكم - أعزكم الله - لا  
نسبة بينه وبينكم، بل من لم يلق الشيخ عبد القادر رحمته الله مثلاً لا نسبة بينه وبينه  
كذلك، ولم نعمل أحداً قال ذلك.

وقد علمت سيدي أن اللقي لم يشترطه أحد حتى من أهل الصحيح ما  
عدا الإمام محمد بن إسماعيل البخاري رحمته الله، شرط ذلك كأنه زيادة في التأكيد،  
وقد رأيت سيدي ما أقامه عليه تلميذه الإمام مسلم بن الحجاج في أول صحيحه  
من الأدلة الظاهرة البالغة، والحجج الواضحة الدامغة، حتى أبطل ذلك الشرط  
وهدمه من أول أساسه. هذا في رواية الحديث الكريم.

وأما في تلقين الأوراد، إذا ثبت الإذن فيها على الوجه المعلوم، فلم نعمل  
أحداً اشترط اللقي فيه، بل ولا المعاصرة، وذلك لأن صورَ المعتقدات إذا برزت  
لا تحتاج إلى صورَ الأشخاص، بخلاف صورَ الأشخاص فإنها تحتاج إلى صور  
المعتقدات، هكذا علّل هذه المسألة الشيخ الشعراي رحمته الله ناقلاً عن الشيخ أبي  
الحجاج الأقسري. قال الشعراي: "وفي هذا أعظم دليل، وأوضح حجة،  
لأصحاب الخرقه الأحمدية الرفاعية، والبرهانية، والقادرية ولا عبرة بمن خالفهم  
في ذلك، وقال إن هؤلاء أموات لا ينطقون، لأن المقتدى به إنما هو أقوالهم

وأفعالهم المنقولة إلينا، الثابتة عندنا لا أشخاصهم". اهـ. أنظر ترجمة أبي الحجاج المذكور من الطبقات الشعرانية.

هذا مع أننا والحمد لله مولانا قد لقينا شيخنا لقاء التبرك، ورأيناه وزرناه ودعا لنا بالخير، وسمعنا منه ما نفتخر به ونتشرف به في الدنيا والآخرة.

وأما الأخذ عنه إذ ذاك فلم نكن بصدده لأن ذلك في حالة الحداثة، وحين السعي في تحصيل ما قسم من علوم الرسوم، والأحكام الشرعية، وكنا نظن إذ ذاك أنه ليس الشيخ إلا الذين نأخذ عنهم تلك الرسوم، إلا أن الله وتعالى بفضله ورحمته ألح لنا في تلك الحالة إشراقة تهدي إلى محبته ومحبة أوليائه، فكنت أسمع بعض أشياخي الصالحين الذين أقرأ عليهم يقول المرة بعد المرة، إذا عنت عويصةً من أقوال المفسرين أو المحدثين، قال الشيخ العارف بالله تعالى سيدي أحمد التجاني رحمته الله ويبالغ في تعظيم ذكره، فسألت الناس من هذا الذي يعظمه الشيخ هذا التعظيم كلما ذكره؟ فقيل: وليّ كبير الشأن، متبحر في جميع العلوم، لا يُسأل عن شيء من العلوم إلا أجاب بصريح الحق والصواب، بلا روية ولا مراجعة كتاب، فيكتب السائل جوابه من إملائه وحفظه كأنه يسرده من أصل صحيح. فكنت أتعجب من ذلك، وعلمت أن الله تعالى أولياء، فزرع الله في قلبي محبة الصالحين، فلم أزل أسأل عنهم وعن أحوالهم، وخصوصاً شيخنا رحمته الله، فأبحث عن أصحابه وأتلقى منهم أخباره وأحواله العجيبة، فتربوا محبة الله تعالى في قلبي، ويزداد شوقي وغرامي.

فلم يلبث الشيخ رحمته الله أن توفي إلى رضوان الله الأكبر وكرامته الباقية، وكنت ممن حضر جنازته والصلاة عليه والحمد لله. فلما أخذت طريقته المباركة عن وارثي أنواره.

أتاني هواها بعد معرفة الهوى فصادف قلبا خاليا فتمكنا

## تتمة أخرى:

اعلم أيها السيد المبارك الكريم أن حامل الكتاب، الفقيه البركة السيد عبد الله الفا عم حفظه الله ورعاه، وأحمد في جميع الحالات مسعانا ومسعاه، لما

بلغ هذه الحضرة ولقينا، وبشّرنا بأنه صحب معه كتابا من حضرتكم العالية بالله إلينا، ولم يدفعه لنا، وذهب إلى فاس وأقام به شهورا عديدة، وذكر أنه وجه لنا كتابكم من فاس مع من أفشاه وأذاع أمره، وحمله على غير وجهه، فسمعنا ذلك من الأجانب فصدّقنا ولم نقطع، وكذبنا ولم نُنْف. فلما رجع من فاس دفع لنا الكتاب بعدما كُتب بأيدي الناس، ووصل إلى حضرة السلطان نصره الله تعالى، وأعلى كلمته ولولا ذلك لكان الجواب على غير هذا الوجه. وقد أبرزتم ذلك الكتاب في صورة النصيحة، وقد علمتم أن الواجب في النصيحة أن تكون مكتومة، وإلا كانت فضيحة، كما قال الشيخ الإمام زرّوق رحمته الله، ونصه: تعريف العيوب مع الستر نصيحة، ومع الإشاعة فضيحة. فمن عرفك بعيوبك من حيث لا يشعر الغير فهو الناصح، ومن عرفك من حيث شعور الغير فهو الفاضح، وليس لمسلم أن يفصح مسلما إلا في موجب حكم بقدره، من غير تتبع لما لا تعلق له بالحكم، ولا ذكر عيب أجنبي عنه، وإلا انقلب عليه الحكم بقهر القدرة الإلهية، وبحسب الكلمة، وبحسب الكلمة الربانية والوعد الصادق". اهـ المراد منه.

وقد كتب يحيى بن يزيد إلى الإمام مالك رحمته الله ما نصه: "بلغني أنك تلبس الرقيق، وتأكل الرقاق، وتجلس على الوطي، وتجعل على بابك حاجبا، وقد جلست مجلس العلم، واتخذك الناس إماما، ورضوا بقولك، فاتق الله يا مالك وعليك بالتواضع. كتبته لك بالنصيحة كتابا ما اطلع عليه أحدا إلا الله تعالى". اهـ.

## فصل

فإذا علمتم هذا فاعلموا أيضا أن بعض الناس، ممن يزعم أنه من أصحابكم، والله يعلم حقيقة نسبتهم إليكم، قد تعلقوا بهذا الكتاب المحدث عنه ابتغاء الفتنة، ظانين أن مثل ذلك يضع من رفعه الله، أو يهين من أعزه الله سبحانه وبحمده.

كناطح صخرة يوما ليقلعها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

وربما نسبوا لكم ما لم تقصدوه، وألزموكم ما لا يلزمكم من محتمل الألفاظ، وحاولوا بذلك إيقاد نار الفتنة بين طائفتين عظيمتين من المسلمين، وأنتم أعزكم الله إنما أوقفكم الله في بابه الكريم لإطفاء نار الفتنة لا لإيقادها، وليس مثل جلالكم يُنمى إلى إيقاظها من رقادها.

وأما أصحابنا أيدهم الله، فإن شأنهم الإخلاق إلى الضعف، والتحمل للأذى من إخوانهم المؤمنين، لا سيما من هو منتسب إلى باب من أبواب الله تعالى، ولكن جنس الإنسان من حيث الجيلة الأصلية على قسمين، قسم غلبت عليهم الحدة وعدم الثبات، وقسم غلبت عليه الرزانة والتوقف في الأمور.

فأما القسم الأول إذا ظلم ويُغى عليه فإنه يحتج بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾<sup>(1)</sup>. ويقول:

و كنت إذا قوم رموني رميتهم فهل أنا في ذا يا آل همدان ظالم  
فإذا عوتب ونهت عن الحجارة في هذا المضمار، لَجَّ وأماط الحمار، وقال  
من استغضب ولم يغضب فهو حمار، وأنشد:

لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا  
وأما القسم الثاني، فإنه لا يزال يتغافل ويتصامم ويغض الطرف، ويصرف نفسه عن مقابلة الشر بالشر كلما أمكنه الصرف، فإذا غلب، وانفلت من يده الصبر وسلب، إعصاءً وحشداً، وقام فأنشد قول من كان دأبه اتباع الرشد:

لم أكن من جئاتها علم الله —هـ وإني بحرّها اليوم صال  
ومن نماه قال له إليك عني، قرباً مربوط النعامة مني، فلو لم تُنبه القطا ما  
سرت، ولا كانت قبل الإصباح انتشرت، وهاهنا قسم آخر لا يفزع إلا إلى التفويض والتسليم، والشكاية إلى الحكيم العليم، ولا يزيد ما كان يقوله ﷺ:

إن الأولى قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا  
وهذا القسم أضر وأنكى على الخائف من سطوة الملك الجبار، الحكم العدل الغالب القهار سبحانه.

(1) الشورى: 39

اللهم اشهد فإنك خير الشاهدين، واحكم بيننا بالحق فإنك خير الحاكمين، وسلام على المرسلين والحمد لله العالمين.

إلى هنا بلغ القصد في جوابكم، أبقاكم الله ومصدر الرحمت والسعادات من أبوابكم، وقد تركنا التعرض لكثير من كلامكم لأمر تجب مراعاتها، ولأن الكلام عليها يستدعي طولاً، ومرادنا التنبيه على ما لا بدّ منه لا غير، فإن شئتم كان اقتصاراً من المدى، وكلّ مريد الحق والله أعلم، وإن شئتم كان استباق، وقلتم وقلنا، فإن القول للقول سلّم.

وعذراً أيها السيد القدوة الهمام، والغوث المتبع الإمام، فمثل علاكم من عذّر من اعتذر، وسارع إلى مغفرة من الله وابتذر، وقد قدمنا بيان الباعث على الجواب والداعي إليه، مع الإقرار بسوء الأدب المتوقع لديه، وقد قيل من أقرّ بالذنب ما أذنب، كالمغتسل إثر ما أجنب، ومن أعظم من الله ونعمه علينا أننا وجدنا في قولكم فيما بلغنا متّسعاً، فجعلنا ذلك المبلغ معاداً لضمير الخطاب ومرجعاً، على أن ما جلبناه عن الثقات من الثقات من الأنقال هي المباشرة للخطاب في تحقيق المقال، فكنتم على حال مبرّئين، وكنا بحمد الله غير مجترئين، وها أنا أقف عجزاً وإعياءً، وأنشد استحياءً:

يا كتّابي بالله قبّل يديه      بدلا من فمي ففيه احتشام

انتهى بحمد الله وحسن عونه وتوفيقه.